زبانية الظلام

الطبعة الأولى

١٤٤٤هـ - ٢٠٢٣م

اسم الرواية: زبانية الظلام

اسم المؤلف: أكرم بن إبراهيم بن صالح الهميسي

التدقيق اللغوي: منى الضايع

تصميم الغلاف: محمد دربالة

الإخراج الداخلي: خالد محمود

رقم الإيداع: ١٥٥٠٩ / ٢٠٢٢

الترقيم الدولي: ٩٧٨-٩٧٧-٦٨٧٤-٨٧-٩



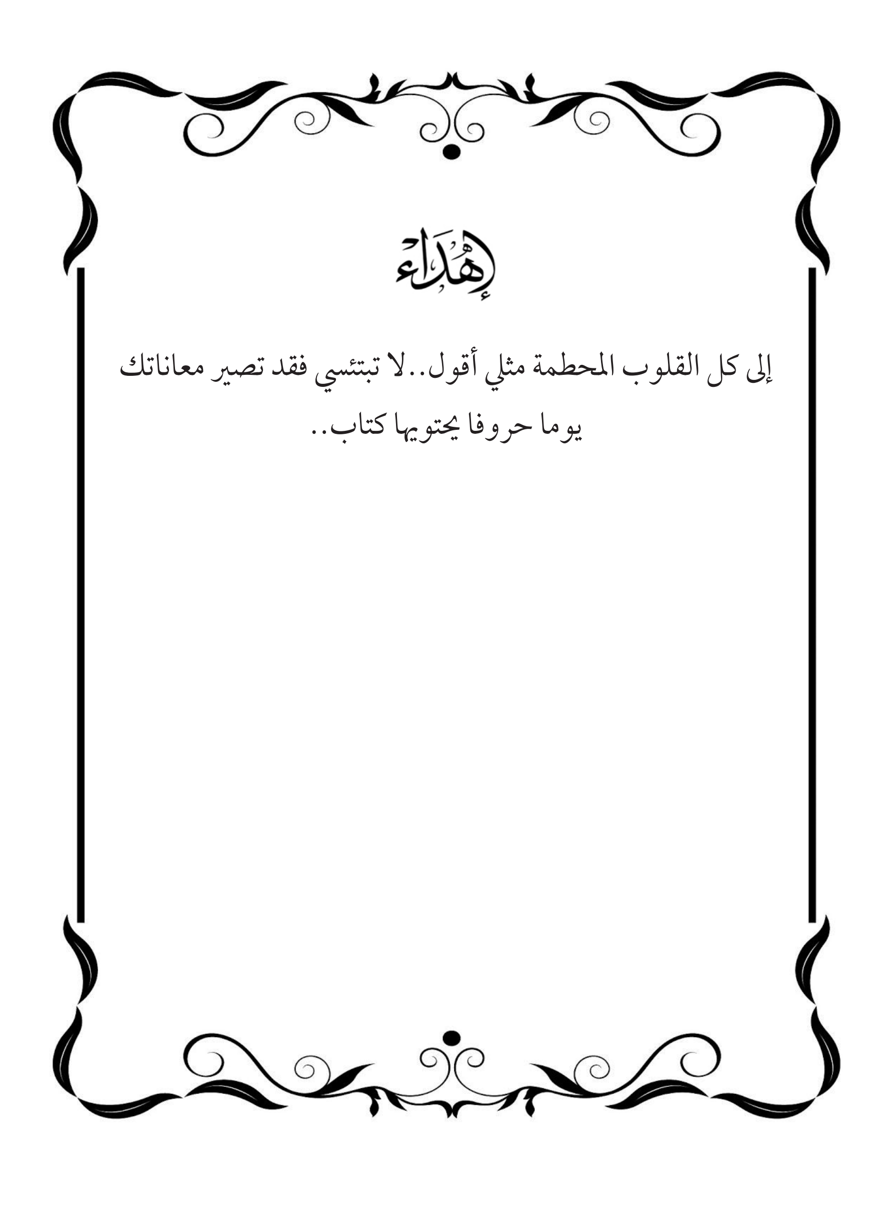

ش- حسن خطاب - قسم يوسف بيك - الزقازيق - الشرقية


01020439639


massar.pub1@gmail.com

زبانية الظلام





إهداء

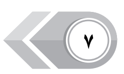
إلى كل القلوب المحطمة مثلي أقول..لا تبتئسي فقد تصير معاناتك يوما حروفا يحتويها كتاب..

لعنة الشيخ الضرير

كانت الشمس تحتضر، وعندما أرسلت سكراتها الأخيرة، شحب وجه المعمورة، وتلبدت السماء بأناتها الصفراء...ثم أمطرت قطعا من الظلام الدامس الذي سرعان ما طغى على الصفرة والشحوب، وكان الظلام يكتسح كل الألوان حتى دفن صفرة الشمس إلى الأبد..في ذلك الجو الجنائزي المفعم بالسواد، كانت تضيء شمعة وحيدة وسط منزل معزول في قلب الغابة..

كانت الأخيلة تتراقص على أطراف ذلك الضوء الخافت..وكان هنالك خيال ثابت منتصب خلف المقعد الخشبي، وكان لا يحرك ساكنا كصاحبه..وهو عجوز ..رث الثياب..أكلت السنين جل أسنانه فلم يبق له سوى ضرس أخير رصده نور الضوء في مستنقع فمه المتعفن.. وكان العجوز بشع الخلقة وكأنه خرج من قبره لتوه..وكان يخيل للرائي أنه يتأمل الشمعة بعينين ثابتتين لا تتحركان، وكأنه ينتظر النهاية الحتمية لذلك النور الخافت...

كانت الشمعة تلفظ أنفاسها الأخيرة على مهل وكأنها تكافح من أجل أن تنير العتمة، وكان الشيخ لا يحرك من مكانه وكأنه معجب بعنادها رغم اقراره بأن نهايتها قد اقتربت ..لقد كان ذات يوم شاباً يافعا يكافح من أجل الحياة، ولكن هاهو اليوم يموت مع الشمعة وحيداً...ويذوب الخيط وسط السائل اللزج ويظل بصيص من النور مشعا في طرف الخيط إلى أن بدأ ينطفئ رويدا رويدا..ويتحرك االخيال المنتصب على الجدار.. ويتحرك معه العجوز وتبرز عروق جسده من وراء جلده المرقع بالتجاعيد..وتتقد عيناه الذابلتان فجأة فيرفعهما إلى أعلى شاخصا ببصره إلى السقف، وكان السواد قد امحى منهما، ثم فتح ثغره وشهق شهقة



مرعبة، فغرق آخر ما تبقى من نور الشمعة وسط سائلها الأشبه بلعاب العجوز المتناثر هنا وهناك...وأظلمت الغرفة وتطاير عبق الموت في كل مكان ....

وبعد سنوات..يتقدم شبان أربعة من الكوخ، ويقول إياد:

_أي كوخ هذا مبني وسط الغابة..!!؟؟لم أتوقع أن نجد من يسكن هذا المكان المقفر..

وتومئ مايا برأسها وتقول:

_فعلا!!!أمره غريب..هل يستطيع أحد ما أن يسكن وحيدا هنا.؟؟.لما لا ندخل ونتفحصه..

ويقاطعها هيثم قائلا:

_لا سيتأخر الوقت..علينا أن نعود إلى المخيم قبل حلول المساء..سيغضب السيد رأفت كثيرا..

ويضحك أنور، ثم يقول:

_جبان كعادتك يا هيثم!!يبدو أنك خائف من الدخول إلى الكوخ..

وينفجر إياد ومايا ضحكا، ثم يقرر الثلاثة اكتشاف المكان بينما يتبعهم هيثم وهو مطأطئ رأسه..

اقترب الشبان من الكوخ أكثر وأكثر، وكان يوشك على السقوط، فقد تآكلت أخشابه وتسللت النباتات من بين شروخه...فتح إياد الباب ثم دلف إلى الكوخ المهجور، وكان الثلاثة الآخرين يتبعونه ببطئ، وكانوا يتأملون المكان الغريب وقد بدت عليهم علامات الدهشة والخوف، وكانت أصوات الرياح المتسللة من بين الثقوب تزيد المكان رعبا..وكان الغبار وخيوط العناكب يغطي أثاث الكوخ

المحطم..ويتوقف إياد فجأة ..ويقول:

_ماذا يوجد فوق ذلك الكرسي؟؟..

ويتقدم من الكرسي بينما بقي الثلاثة خلفه، ثم يصيح:

_يا إلاهي!!..انها بقايا عظام بشرية!!!...

وكان في ذلك الوقت مدير المخيم _السيد رأفت _يزمجر غاضبا:

_إلى أين ذهب هؤلاء الشبان الأربعة؟..لقد نبهتهم مرارا و تكرارا بأن لا يتوغلوا بعيدا في الغابة.لقد عاد كل زملائهم للمخيم ..ماذا عساي أفعل الآن!! لقد أقبل الليل ولا أثر لهم..

وأظلمت الغابة، وعم الصمت الرهيب أرجاءها فلا يكاد يسمع سوى صوت حشرجة المفترسات الليلية وعواء الذئاب، وأضاءت نار المخيم المكان وخلد الجميع للنوم بعد أن يئسوا من عودة المفقودين..

مرت سنوات على حادثة فقدان الشبان الأربعة في الغابة، ولم يعثر عليهم رغم حملات البحث المكثفة، وقد شغلت هذه الحادثة الغريبة الناس لفترة طويلة..

و يجلس السيد رأفت محطما على كرسي مكتبه، وكان ضميره يؤنبه كل التأنيب لأنه كان يظن أنه تسبب في هلاك أربعة شبان في مقتبل العمر..وكان وزر هذه الحادثة يجثم على صدره وينخر عقله كل ليلة رغم مرور كل هاته السنوات..وكان ذات ليلة يتصفح أحد الكتب القديمة بعد أن طال به السهاد..وقرأ فيما قرأ عن لعنة شيخ ضرير..فقد عاش في هذه المدينة شاب كرس حياته لتربية أبنائه الثلاثة بعد وفاة زوجته، وكان يقدم على أي عمل مهما كانت صعوبته ليوفر لهم كل حاجياتهم، وكبر الأبناء وتزوجوا وغادروا المدينة ليتركوا والدهم وحيدا حتى ابيضت عيناه وفقد البصر من فرط البكاء...وظل يتسكع بين الطرقات، وكان

يعيش على صدقات الناس...و وقف ذات يوم على مشارف المدينة، وكان ينظر إلى السماء ويبكي بكاء تنفطر له القلوب...ثم دخل الغابة، وانقطعت أخباره ...ورجع أبناؤه للمدينة ذات يوم، وعندما علموا بمكانه حاولوا ايجاده في تلك الغابةفلم يعد أحد منهم ...ومنذ ذلك الوقت أصبح سكان المدينة يتداولون حكايات عن لعنة الشيخ الضرير فما من أحد يتبع خطاه وسط الغابة إلا ويكون مصيره الهلاك...انتفض رأفت من مكانه غير مصدق ما قرأه:

_هل يمكن هذا؟ هل أصابتهم لعنة الشيخ الضرير...من المرجح أنها مجرد خرافات وأساطير يتداولها الناس..لن يهدأ لي بال قبل أن أعرف ما حل بالشبان في تلك الرحلة...

وظلت الأفكار والهواجس تحوم حول عقله حتى أعياه التفكير...وكان قد عقد العزم على العودة إلى الغابة ومعرفة ما حل بالشبان الأربعة كلفه ذلك ما كلفه...

أشرقت شمس ذلك اليوم، وكان ضوؤها خافتا على غير عادتها وكأنها تنذر بشر قريب، وكان رأفت على مشارف الغابة ويتوقف وينظر إلى المدينة خلفه، ويقول:

_لن أعبأ بخرافاتكم!! سوف أحل هذا اللغز قريبا..

وكانت الأشجار الكثيفة تتراقص أمام عينيه كالأطياف وهو يتوغل في الغابة بثبات، ويحاول أن يتذكر أدق التفاصيل حول الوجهة المحتملة التي اتخذها الشبان الأربعة، ووصل إلى مكان التخييم، وكانت بقايا الأخشاب المحترقة لا تزال في مكانها لتخلد تلك الذكرى المأساوية فتدمي قلب الرجل من جديد، وكانت الدموع تتربص بقلبه المنهك فيحبسها قبل أن تنفجر فتضعفه وتخمد عزيمته.... وكان قد قرر سلك طريق يعتقد أنه تجاهله الكثير أثناء بحثهم على المفقودين وذلك لصعوبة تضاريسه...وكانت النباتات الشائكة تعيق تقدمه، ويحاول ازالتها بخنجر حاد كان قد أحضره معه تحسبا لمثل هذه الصعوبات...ويواصل رأفت

التقدم نحو المجهول، وكان يقطع الأغصان المتشابكة التي تعيقه ويسير بخطى ثابتة ...وفجأة يتوقف عند منحدر صخري... ويرتجف قلبه، فقد كان شديد الانحدار، ويخرج المقراب من حقيبته اليدوية ويحاول أن يبحث عن أي دليل يقربه إلى مكان المفقودين..ويتراءى له أسفل المنحدر شيء ما، ويمعن النظر فإذا هي ملابس آدمية ترفرف بين الأعشاب المتراصة..ويقول:

_لا بد لي من النزول إلى أسفل المنحدر أظنني وجدت دليلا مهما!!

هبت نسمات الخريف على جبين رأفت، وكان يجاهد نفسه للنزول من أعلى المنحدر، فتطايرت قطرات الندى المتشبثة بأوراق الأشجار وامتزجت بالعرق وتساقطت حباتا متلألئة فوق الصخور اللزجة، وسرعان ما تلطخت تلك النجوم المشعة في وضح النهار بلون أحمر قاتم..انه لون الدماء التي برزت من بين شروخ يديه..لقد كانت الصخور منتصبة في ذلك المنحدر كالسكاكين الحادة فزادت مهمة السيد رأفت صعوبة..وهاهو يصل أخيرا الى الأسفل بعد أن اخترقت طعنات الصخور كافة أنحاء جسده...وكان يقترب من المكان الذي شاهد فيه قطع الثياب، وكلما تقدم يزداد قلبه في الخفقان.. من شدة التوتر والخوف الذي ألم به..وكانت أنفاسه تتصاعد فتصدر زفرات كالرياح المنذرة بعاصفة شديدة..ويتسمر في مكانه فجأة...وإذا به شاهد على مشهد مرعب..خرق بالية يبدو أنها بقايا ثياب أحد الشبان المفقودين، وكانت العظام متناثرة هنا وهناك، ويدقق السيد رأفت فيما ما تبقى من الجثة، ويشاهد محفظة ملقاة على الأرض فيحاول جذبها من بين النباتات المتشابكة، وبعد أن نجح في الحصول عليها، يتفحص المحفظة بين يديه، ثم يتمتم قائلا:

_المسكين...هيثم..آه لقد لقي حتفه...إنها محفظته..

وتنتاب السيد رأفت نوبة حزن حادة بعد أن تأكد من هلاك أحد الشبان،

ويقف متسمرا في مكانه، وكان جبينه يتصبب عرقا، وهو لم يعد يقوى حتى على السير، وخفتت عزيمته فجأة ولم يعد قادرا على مواصلة الطريق فقساوة المشهد كبلت حركته...وكان يقول بينه وبين نفسه.."آه..آه..يظل الإنسان في كامل جبروته حتى يتجسد الموت أمامه فيعيده إلى حجمه الطبيعي..ولكنه للأسف سرعان ما ينسى ويعود إلى طغيانه..نعم ..نعم إنه النسيان يمسح الألم الظاهر بألم باطن، لا نشعر به، لكنه أشد قسوة..أشعر أن الألم داخلي تحول إلى برود ولا مبالاة أو شيء آخر لا أعلم ما هو..مسكين أيها الصغير لقد خطفك الموت مبكرا.." ورغم وابل المشاعر الحزينة التي ألمت به يواصل السير بين الأشجار المتراصة التي كانت تحجب نور الشمس الموشكة على المغيب...وتتساقط قطع الظلام على ذلك المكان الموحش فترتعد فرائص السيد رأفت، ويسرع الخطى قبل أن يعم الظلام أرجاء الغابة..ويشاهد حطام كوخ قريب لم يبق منه شيء سوى كومة من الأخشاب وبعض الدعامات التي لازات منتصبة شامخة تقاوم الزمن بمفردها..فيقترب الكهل الخمسيني من المكان وهو يسأل نفسه:

_من هذا الذي كان يقطن هنا ؟أهو الشيخ الضرير الذي تحدثت عن الأساطير؟..لابد أن مايا وأنور و إياد قد وصلوا لهذا المكان قبل اختفائهم..هل أصابتهم اللعنة التي تحدث عنها الكتاب!!؟؟..لا أريد تصديق خرافات لعنة هذا الشيخ الضرير ..لكنني سأبحث عن أي دليل في هذا الحطام..

وإذا به يلقي بقطع الأخشاب والأثاث المتآكل هنا وهناك ويحاول ايجاد أي شيء في ذلك الهراب، وكان يمشط المكان بحركة جنونية وكأنه يتحدى اللعنة التي تحدث عنها الكتاب ويحاول أن يكذب تلك الخرافات، ولكنه يتوقف فجأة ويقول بنبرة متقطعة:

_فعلا لقد أصابتهم لعنة الشيخ الضرير، وسوف تصيبني أنا الآخر..

وكان يحدق في شيء ما وسط الحطام قبل أن يسقط أرضا وهو يتحسس الهياكل العظمية للشبان الثلاثة التي وجدها تحت الحطام، ويصيح باكيا:

_أين أنت أيها الشيخ الضرير؟لماذا فعلت هذا بهم؟؟

فيسمع صدى صوت، خرج من غياهب الظلمات، وكان يقول له:

_هدأ من روعك يا سيد رأفت!انها مجرد تهيؤات..

_من..من أنت؟..الشيخ الضرير؟ألا زلت حيا؟

فيجيبه ضاحكا:

_نعم ..نعم..مازلت حيا، وها أنا أشرف على حصتك المسائية للعلاج النفسي..

_عن أي علاج تتحدث ؟؟..لقد وجدت للتو جثث الفتاة والشابين تحت الحطام!؟؟علي أن أخبر الجميع بذلك..

_يبدو أن حادثة انهيار سقف المعهد فوق تلامذة الفصل وهلاك أربعة شبان ومنهم ابنتك مايا لا زالت تؤرقك رغم مرور سنوات عليها، فكلما أحاول أن أنسيك فيها، تخلق لنفسك قصة جديدة وتجسد تلك الحادثة بصورة أخرى..

لم يصدق رأفت ماسمعه..فهل أن كل تلك الأحداث التي جرت له هي مجرد تهيؤات؟!!..وهل ان حادثة وفاة ابنته مع أصدقائها لازالت تؤرقه وتسبب له كل تلك الهواجس..يشعر بصداع كبير يشدغ رأسه، فيطبق عليه بشدة بكفي يديه لعل ذلك يخفف عليه الألم، ثم يخرج من عيادة الطبيب النفساني دون أن ينبس بكلمة..وظل يمشط الشوارع ذلك اليوم غير عارف ما يصنع....توسد همومه وآلامه وظل يتقلب تلك الليلة كنومه المتقطع..

بزغت شمس يوم جديد..فاستفاضت المدينة الصاخبة نورا هادئا..وينهض



رأفت من فراشه ليحتضن نسمات الصباح الأولى قبل أن يلوثها دخان المدينة... وما لبث أن خرج بإتجاه الحديقة العمومية ليملأ رئتيه بالهواء النقي ...كانت تلك الخضرة الغناء تقف وحيدة متاخمة للواد، وكأنها ظلت طريقها وسط زيف الحضارة..فالأطيار والأشجار و عبقات الأزهار لا تجد لها مقرا إلا في ذلك الركن من المدينة..يظل رأفت يتجول بين أعمدة الأشجار الشامخة، فيرى بركة كبيرة، فيسرع الخطى باتجاهها..كانت صافية كالمرآة حتى أنه يرى كافة تجاعيد وجهه بوضوح.. كذلك آثار الأرق على جبينه كانت مرسومة على سطح المياه بدقة..وتسود المياه فجأة ويذهب صفاؤها، فيحدق رأفت بها ملياً وكأنه يترجاها كي تعود لها نضارتها.. ولكن المياه يتحول لونها إلى لون أحمر داكن يثير الاشمئزاز..فيعجب من أمر تلك البركة، ويفرك عينيه لعله يستيقظ من سباته إن كان لا يزال نائما..ثم يجلس بجانبها لعله يجد تفسيرا لذلك الاحمرار الغريب..وبينما كان غارقا في تفكيره إذ به يسمع أصواتا غريبة خلفه، فيلتفت على عجل..ويا لهول ما رأى!!!..الأشجار أخرجت جذورها من باطن الأرض، وكانت جذوعها تترکز على تلك الجذور لتتقدم نحوه ..وتظل تتقدم ببطئ لتحيط بالبركة الغريبة، وهو لا يقوى على الوقوف من فرط الدهشة والخوف الذان ألما به....وكانت قرص الشمس يختفي وراء أغصان الأشجار المتراصة..فيقف رأفت، ويحاول الهروب لكن هيهات..فالأشجار المتحركة أحاطت بالمكان كالأسوار العالية فلا يمكنه الفرار، ويصرخ عاليا ..ويطلب النجدة ..وما من مجيب ..تمتد الأغصان نحوه، وتصير كالمخالب فتطبق عليه..ويتخلص منها، ثم يتراجع للخلف فيسقط في بركة الدم...نعم لقد صارت المياه البيضاء الناصعة دماء غرق فيها رأفت، وظل يصيح ويحاول الوصول إلى الضفة...وبدأت قواه تنهار..وتسرب الدم من أنفه وفمه، وبدأ يجد صعوبة كبيرة في التنفس.. وقبل تغمر الدماءكامل جسده..يشاهد شخصا ما يتقدم نحوه..ثم يمد إليه يده، فيتمسك به بقوة..ويحاول النجاة، وإذ بالشخص المجهول يخاطبه:

_لقد أتيت للمكان الخطأ، فنلت جزاء فعلتك...ألم تسمع من قبل بلعنة الشيخ الضرير! اترك يدي الآن.. واذهب إلى الجحيم!..

ويفتح الغريق عينيه بصعوبة، ويقول:

_ولكن الطبيب أخبرني بأن كل ما عشته كان مجرد كابوس !!لا يوجد أي شيخ، ولا توجد أية لعنة..ما الذي يحصل لي..ابنتي مايا..أين أنت!؟؟..أين أنت أيها الطبيب أخبره بأنه وهم!!.. أيها الطبيب ..أيها الطبيب..أين أنت...؟!!

ويظل يمسك باليد بكل قوته لينجو..ولكنها كانت تنفلت منه، ثم يشعر بأن أغلال من الحديد قد أطبقت عليه، وكان أحدهم يجره فيخرجه من بركة الدماء، ويشعر كذلك بأنه ممدد على صدره، وكانت اليد تمسك بمؤخرة رأسه..وكان يرى الأشجار تتراجع للخلف، فتعود إلى أماكنها، وتنغمس جذورها في الأرض، وكانت أضواء غريبة كأضواء السيارات الضخمة تحاصر المكان..ووسط كل تلك الفوضى الرهيبة، يسمع صوتا خشنا يقول له:

_الزم مكانك أيها المجرم لاتتحرك... ها قد أمسكناك متلبسا!!

ويسمع صوتا آخر يجيبه:

_فعلا..لقد كان هذا الطبيب المسكين آخر ضحية له..ما أقسى قلب هذا اللعين..!!كيف له أن يقطع جثث ضحاياه إربا إربا ويدفنها كلها في هذا المكان المعزول من الغابة...ستنال جزاء جرائمك أيها المعتوه!!!!لقد قضى معظم حياته في شؤون التخييم والأنشطة السياحية!كيف استأمناه على صغارنا !؟؟..إن هذا المجرم لا يملك من الرأفة إلا الاسم..ما أقسى هذا القلب!!

تداوت نشرات الأخبار ذلك اليوم هذا الخبر.."لقد ألقت عناصر الشرطة على وحش الجبل الذي روع السكان عبر سلسلة من الجرائم الغامضة، وكان يقتل

ضحاياه بطريقة وحشية ويدفنهم بالقرب من حطام كوخ معزول وسط الغابة ..ولم تشهد المنطقة مثل هذه الدموية والعنف، فهذا المجرم لم يرحم حتى شيخا ضريرا وهو الذي كان أول ضحاياه..والمذهل في الأمر أنه أنكر كل التهم الموجهة إليه أثناء الاستجواب...ولا زال يصر على لعنة شيخ ضرير أصابته وستصيبنا جميعا.."

وظل رأفت قابعا في سجنه ينتظر محاكمته، وكان رئيس المخفر في زيارة دورية لذلك السجن، وقد توجه نحو زنزانة رأفت التي أحاطها بحراسة كبيرة نظرا لخطورة ذلك المهتم، وبعد أن اطمأن لوجوده داخل زنزانته قفل راجعا...ويدخل فجأة أحد أعوانه وهو يصيح :"انه لأمر غريب..جريمة أخرى في نفس المكان من الغابة اكتشفها صياد، والأغرب أنه في حالة غير طبيعية ويتحدث عن لعنة الشيخ الضرير..!!!"..

العائد من الموت

في جحيم أصفر ممتد على كيلومترات، مرقع ببعض الخضرة الزائفة، برز من بين حطام طائرة الآرباس، شبح إنسان يمشي حينا ويسقط أحيانا، تدفعه حرارة الصحراء القاحلة نحو ظلال أشواك الصبار ..هذا النعيم الشائك، يعطيه أملا ليتشبث بالحياة، وهو الناجي الوحيد من حادث الطائرة..

افترش الرمال الحارقة، وتدثر السماء القاتمة، لثلاث ليالي على بطن خاوية، اختفى فيها بريق النجوم في السماء، فكانت تتجمع كل ليلة لتكون قطعةاسفنج هائلة، ما تلبث أن تتكور وتتساقط منها حبات ماء، فيفتح فمه ليلتقطها قبل أن تبتلعها الصحراء، لكن ما إن تطل الشمس بلسعاتها القاتلة لا يجد في فمه شيئا سوى لعاب جاف فيزداد عطشا...

تحسس جيبه، فلم يجد إلا سكينا صغيرا وعلبة سجائر فارغة وأعواد ثقاب.."لا شيء يأكل لابد أن أجد ما أسد به رمقي قبل أن ألقى حتفي"، تمتم بهذه الكلمات فالتصقت مع كل كلمة شفتاه الجافتان ببعض لتغلق باب الأمل أمام أمعائه الحالمة..أوقد برداللیل القارس بجذور جافة و نصف عود ثقاب واحتفظ بالنصف الآخر لليلة أخرى قد لا يدركها وهو على قيد الحياة..ألقى بجسده المتهالك حذو النار متلذذا برائحة الشواء المتصاعدة منها ، ثم أخرج سكينه البائسة ليقطع اللحم المشوي قبل أن يبرد..قطعت متعته الكاذبة دغدغة شيء ما فوق بطنه، فاستجمع آخر ما يمتلك من قوة و ضرب هذا الزائر المزعج..تأمل فيه مليا فعجزت عيناه الذابلتان عن رؤيته، قرر إضافة هذا الكائن البري _أي كان_ إلى مائدة طعامه.. كانت ألذ وجبة تناولها منذ خلق حتى أن شفتاه الجافتان أطلقتا ابتسامة شحيحة

غابت عنه منذ ليالي..فأدرك القدر أن هذا العائد من الموت، لن يهزم بسهولة كما يدل على ذلك جسده المنهك بالتعب والعطش ولازالت ستجمع بينهما جولات أخرى..

ظل كذلك أسبوعين يتغذى على كل ما يعترضة من كائنات الصحراء ويجفف ريقه بسوائل الصبار اللزجة، فذلك العالم القاسي لا يترك له فرصة للإختيار.

واصل طريقه نحو المجهول يسبح بين كثبان متماثلة، كلما ظن أنه تجاوز الأولى حتى تخرج من باطن الأرض كثبان أخرى لا يعرف لها نهاية، مع كل حدبة رملية جديدة يتضاءل أمله بالنجاة فتتسارع نبضات قلبه وتخرج من جوف صدره زفرات مؤلمة تنثر عبق الموت في كل مكان من تلك الأرض القاحلة، ويسمع دوي صوته في الفضاء"يا الله..االله..ان الموت أهون علي من الجحيم الذي وجدت نفسي فيه.."

..استسلم للقدر ورمى بنفسه من أعلى الهضبة بعد أن رفضت قدماه الانصياع له، ظل يتدحرج ويتدحرج إلى أن اصطدم بشيء صلب فأغمي عليه...ظل مدة يتأرجح بين الحياة والموت، ثم نبض قلبه من جديد فمد يده يتحسس المكان، أحجار متراصة بعض فوق بعض في قلب الصحراء، يبدو أنها من صنع إنسان، توهجت أسارير وجهه الشاحب مؤذنة بفرح قريب يزيل عنه هذا الكابوس ..بناية قديمة لكنها نبع حياة في ذلك الموت الأصفر، تتوسطه بئر جافة لم يرى مانعا من النزول داخله عله يظفر بقطرات مياه ..تشبث بالصخور ونزل رويدا رويدا حتى بلغ جوفه، فوجد بركة صغيرة يغلب عليها الوحل لا تستحق كل ذلك الجهد ..شرب ما استطاع شربه وتمرغ في الطين كخنزير بري..قضى هناك ليلة أكثر رفاهية من لياليه السابقة، كيف لا وقد جلب بعض الزواحف التي كانت تحوم حول المياه الراكدة، فنام هانئا بعد حفلة شواء تحت سقف بيت يكفيه العراء

رغم تواضعه ..لم تدم حياته الهانئة طويلا فقد استفاقت في ذهنه الحادثة الأليمة..

_ألم يكن من الأفضل أن أقضي نحبي مع بقية الركاب ؟لماذ منحتي الحياة فرصة أخرى لتذيقني علقما؟هل أن القدر أطلق علي قططه البرية لصيدي ثم التلذذ بقتلي رويدا رويدا..يبدو أن زبانية القدر قد دلتني على هذا البئر لتلقيني بعدها في قعر الجحيم..

تمتم بهذه الكلمات ففاضت من قلبه العبرات ..دموعا، زادت عليها الحسرة والألم ما يكفي هموم الأرض قاطبة...أقبل الصباح فسار نحو حتفه غير مبالي ..أرسل الوهج الحار لنسمات الصحراء إنذارا له، فاحمر وجهه خجلا من القدر وألما من هذا الوهج، فانكمش وجف جلد جسده العاري حتى تساقط كأوراق الخريف في صيف الصحراء القاتل ..كم اشتاق لقطرات المطر التي كان لا يهتم بها حتى توقفت سيرورة الزمن في ذلك المكان، فأدرك كم كان قاسيا على تلك القطرات.. لقد علمته الصحراء ما لا يستطيع تعلمه في أي مكان ...وكان يتحسر ويهتف في نفسه

_تمضي الحياة و يظن الإنسان أنه أدرك كل شيء، وينغمس في وهم السعادة الزائف غير مدرك أنه معرض لأن يفقد كل شيء في لحظة، فيهدم ما بناه طوال حياته في أجزاء من الثواني ولا يبقى سوى قوة عزيمته و قلب تم تهيئته لتحمل المتاعب وعقل راجح لإدارة كل هاته الأمور، إن أسوأ ما يمر به الإنسان هو أن يرى كل أحلامه، ما استطاع تحقيقها وما لم يستطع، تموت أمامه..

تبادرت إلى ذهنه هذه الأفكار وكأنه يهيئ نفسه للاستسلام ..

كلما تقدم أكثر تغدق عليه الصحراء مزيدا من الألم والجراح، الحر والأفاعي والسراب تحيط به من كل جانب، لكنه رغم ذلك يواصل المسير فخيل إليه أنه يرى سرابا آخر، هاهو يقف أمام واحة نخيل والمياه من حولها تسيل عذبة ناصعة

في جو من الخضرة كادت أن تمحي من مخيلته..كان يتقدم نحو هاته الأطياف ربما يجد بينها شيئاحقيقيا..تحسس المياه، إنها عذبة منعشة، رمى بجسده المتهالك في جوف البركة آملا أن لا يستفيق، إن كان في حلم، فعادت إلى بشرته نضارتها وزرعت الحياة في وجهه من جديد، وضرب مؤخرة رأسه ضربا خفيفا لكي يستفيق لكن ذلك النعيم يأبى أن يزول، يبدو أنه حقيقي .لا يصدق أنه عثر على واحة في قلب الصحراء ويظل يسير متفيئا ظل النخيل فتنفجر أسارير وجهه غبطة وسرورا، ويصيح

_نعم إنها واحة حقيقية!!!

لقد أفلت من براثن الموت المحقق...ارتمى في حضن الحياة ونام لأول مرة منذ أسابيع دون أن تؤرقه الكوابيس والأفكار، فتح عينيه فإذا بأشخاص يرتدون عباءات خضراءغريبة محيطين به.. وسمع أصواتا تقول" ما هذا..إنه يستفيق ..هل زال تأثير المخدر بهذه السرعة ونحن بصدد إجراء العملية الجراحية..يجب أن نقوم بتخديره من جديد.. ".

البروفيسور

استيقظ البروفيسورعلى غير عادته في الهزيع الأخير من الليل.. شعر بصداع خفيف..يبدو انه ارهق نفسه كثيرا في المخبر..تناول أقراصا مهدئة عله يظفر بالقليل من النعاس قبل بزوغ الفجر ..لم يستطع النوم، فخرج ليستنشق نسمات الفجر الاولى ويتنعم باشتات الظلام الممزوجة بالحمرة، قبل ان تعكر صفوه اصوات عملة النظافة و ضجيج السيارات.. مع شروق الشمس خرج دون ان يتناول فطوره مسرعا الخطى نحو مخبره القريب من محل سكناه كعادته ان يفعل منذ ما يناهز الثلاثين عاما، وهو الآن على مشارف الستين من عمره قضاها كلها في البحث والتشخيص.. ادخل يديه المرتعشتين إلى جيبه ليخرج مفاتيح الباب، غير أنه أبى ان يفتح ..حاول مرارا وتكرارا فما استطاع...بدأت سمات القلق و الغضب ترتسم على وجهه..لا بد ان عامل الصيانة قد غير القفل..طرق الباب بقوة لعل احد الموظفين سبقه الى المخبر، فما من مجيب..مكث على تلك الحال برهة من الزمن مما اثار استغراب القاطنين هناك فبا دره احدالمارة بالسؤال"ان مخبرك في العمارة المجاورة..هل من خطب بروفيسور؟"..صعق لما سمع وخرج مسرعا نحو تلك العمارة ..فتح اُلباب ففُتح..انهار فوق كرسيه من اثر الصدمة شاخصا ببصره الى السقف كأنه يراه لاول مرة ثم غرق في تفكير عميق يتارجح بين الحيرة و الرهبة..كيف له ان يخطئ الطريق الى مخبره الذي قضى فيه جل ردهات حياته؟... هل هي مخلفات التعب و الارهاق؟..نعم هي كذلك اقنع نفسه بأن نومه كان متقطعا ليلة البارحة وهوفقط بحاجة الى قليل من الراحة...انتفض من مقعده كمن وخزته إبرة ثم اقبل نحو معداته يرتبها، وانهمك في عمله..مرت

عليه ايام وهو اما ان يخطئ طريق الذهاب الى المخبر او طريق العودة الى المنزل فصار الامر يقلقه كثيرا حتى ان موظفيه لاحظوا ذلك..لم يكن للبوفيسور عائلة او اصدقاء كثر ليبادلهم همومه، فقد مر عليه ما يناهز النصف قرن بين معداته وعيناته وانابيبه.. لقد كان يحبهم كثيرا مثل فلذات كبده، فقد يستغرق اسبوع في ترتيبهم و تنظيمهم ونفض الغبار عنهم دون ان يشعر بمرور الزمن..بل يبكي حرقة و ألما اذا انكسر انبوب اوفشل في تجربة..ذات مساء بعد ان اوصله احد موظفيه الى المنزل، القى بجسمه المتهالك على اقرب اريكة في وقار، حتى يخيل للرائي انه امام قائد عظيم من زمن الاغريق انهكت الحروب جسده وحفرت خنادق في وجهه، وظلت عيناه الحادتان تفيضان فطنة و ذكاء..ظل كذلك حتى اخذته غفوة قطعها صوت آت من المطبخ.. تحامل على نفسه لينهض متثاقلا..فتح باب المطبخ فاذا أمه تقوم باعداد الطعام ..اعتلت محياه ابتسامة عريضة فرحا برؤيتها ..تبادلا النظرات في صمت يختزل كل عبارات الشوق والحنان...أغلق الباب دون أن ينبس ببنت شفة وعاد الى اريكته عودة

المنتصرفي راحة وطمانينة كبيرتين، واستغرق في نوم عميق غاب عنه منذ مدة..

ما فتئت أمه تزوره كل مساء فاستأنس بوجودها معه....كان البروفيسور يتفحص ذات يوم أرشيفه فوجد رقم هاتف صديق قديم يعمل طبيبا نفسيا..كان بحكم فطنته يحدث نفسه كثيرا بأن مشكلته تتجاوز الأرق ..ربما يعاني من بعض الاضطرابات النفسية..لما لا يتصل بصديقه؟ استجمع قواه ليتصل به وكأنه مقدم على حدث عظيم ..ربما الخشية من معرفة النتيجة تحول بينه وبين الاتصال به..

بعد أخذ و رد، اتصل به أخيرا فاتفقا على لقاء...كان البروفيسور في الموعد المحدد..وكان كعادته دقيقا في مواعيده..غيرانه لم يستطع اخفاء مشاعر الارتياب التي ارتسمت على محياه، فقد اعترته نوع من

الخشية المشوبة بالحذر...

"مر زمان يابروفيسور ..سعدت بلقائك..".

تمتم الطبيب، ثم أردف مخاطبا السكريتيرة"كأسي عصير لي وللبوفيسور.."، ثم استدارنحو الصديق القديم وقال"اعلم انك تحب العصيريا صديقي..حسنا.. هل لي ان اعرف ما الذي يزعجك؟"...طأطأ البروفيسور راسه، فخرج من صدره نفس مشحون بالالم.. حدق بالطبيب مليا ثم قال"لقد مرت علي سنين منذ آخر مرة رأيتك فيها... عذرا صديقي و لكنني لا اكاد ابرح مخبري..فأنا أريد تطوير مستحضرات لأدوية مستنبطة من الاعشاب البرية..أململها وأحورها و أعالجها ..غير أن خطبا ما حل بي.. أتيت اليك..لعلك تستطيع أن ..تعالجني.. فقد بات دماغي الذي استوعب كل هاته العلوم لا يستوعب طريق الذهاب الى المخبر، ولا حتى طريق المنزل..ولم يحدث ذلك مرة واحدة، بل إن الأمر بات يتكرر يوميا.."تبسم الطبيب بعد ان نهض من مقعده حاملا كوب العصير بيده ثم راح يتفحص مكتبته المليئة بالمجلدات الضخمة..تقدم نحو البروفيسور و ربت على كتفه ثم قال"لا يبدو لي الأمر خطيرا.. ربما هي اعراض الزهايمرالذي يمكن معالجته في بدايته... سوف اوجهك لاخصائيين آخرين لمزيد الجزم بحالتك..عموما لا بد لنا من عديد حصص العلاج النفسي لتستقر حالتك باذن االله..لما لا تخبرني كيف تقضي وقتك ايها الصديق؟".تبسم البوفيسور بعد ان طمأنه الطبيب قليلا، ثم أجابه"وقتي ليس ملك لي يا صديقي، فإني أقضي معظم ردهات اليوم في إجراء الإختبارات، فكيف لي ان اترك مخبري بعد أن شارف العمل على النهاية، ولكنني بين الفينة والأخرى أقوم ببعض الرحلات الترفيهية الى الجبال، واني أستغل الفرصة لأجمع بعض النباتات الطبية النادرة..وقد عثرت في إحدى الرحلات للغابات الاستوائية على نبتة الدالما، وهي نادرة، ولقد ظن معظم الباحثين أنها انقرضت..."

يجذب من جيبه زهرة بنفسجية اللون..أوراقها في شكل مثلثات..يضعها فوق الطاولة، ثم يواصل الحديث.." اني أستغل العطل للعمل كذلك.. و يرافقني في معظم السفرات فريق عملي، وهو الذي يقوم باعادتي للبيت غالبا لأنني لا أستطيع العودة وحيدا..وعادة ما أجد أمي بانتظاري تعد الطعام.."..

ما ان انهى كلامه حتى تغيرت ملامح الطبيب ففتح فاه و جحظت عيناه و أسقط كوب العصير من يده ..استجمع كلماته ثم قال" ما ذا تقول يا بروفيسور؟ان امك متوفاة منذ خمسين عاما "...نزلت عليه كلمات الطبيب

كالصقيع فشلت حركته وتجمد لسانه ..حاول ان يتكلم او يصيح.. جاهد نفسه فلم يستطع واذا الدنيا قد اظلمت أمامه في و ضح النهار...كان يشعر انه قد مرت

عليه سنوات وهو على تلك الحال..يبصر بين الفينة و الاخرى بصيص نورخافت قادم من بين غياهب الظلمات وما يلبث ان يختفي فجاة...الى ان اتسع النورفاتى على قطع الظلام يلتهمها الواحدة تلو الاخرى..انقشع الظلام ومزق الصمت الرهيب صوت فتاة.."الحمد لله على سلامتك بروفيسور يبدو أنك استفقت من غيبوبتك. إنك الآن في المستشفى.."هكذا خاطبته الممرضة والابتسامة العريضة تعلو محياها ..مرتدية إزارها الابيض الناصع..ما أحوجه الى هذا البياض بعد ان غلبت الظلمة الحالكة على ايامه الماضية.. بعد أن خرجت الممرضة أجال بصره

صوب النافذة، وكان نور الشمس المتسرب من بين الستائر قد نحت تمثالا متكون من خطوط متوازية تارة، مائلة تارة اخرى، و ما يجمع بينها هو بريقها و تلألؤها، فأزال من الغرفة جو الكآبة الذي كانت عليه ..نهض من الفراش متوجها نحو الشرفة ليأخذ نصيبه من نور الشمس قبل أفوله..فوجد أمه جالسة هناك فاتخذ مقعدا بجانبها..حدثها عما مر به من ألم وأرق فأسرف في الحديث

حتى مغيب الشمس..كانت تومئ بين الحين والاخر براسها مكتفية بالنظر اليه نظرة حب و خوف..قاطع خلوتهما صوت الممرضة تطلب منه الدخول الى الغرفة لا بد انهموعد الحقنة..استسلم لها ثم خلد الى نوم عميق و طيف امه لا يزال بجواره ..مد يده ليصافحها، فتحاشته و قامت من مكانها.. تبعها محاولا إثناءها عن الخروج فهو لا يريدها ان تتركه في هاته الظلمة وحيدا...فتحت الباب فجرى خلفها وامسك برداءها، فاستدارت و صفعته بقوة على وجهه..لماذا فعلت ذلك؟ اي ذنب اقترفه؟انفجرت عيناه دموعا فامتزجت بقطرات دم سال من فمه من هول الصفعة، فأضفت نوعا من الحمرة يقطع مع البياض الناصع لإزار الممرضة التي شعر انها تمسك به بقوة و الطبيب قادم في اتجاهه راكضا وطيف أمه يبتعد صاعدا الى السماء، وهو يراقبه بعينين ذابلتين..طغت على المكان الظلمة من جديد..كان يستمع الى كلمات متقاطعة هنا هناك.."لقد اصطدم بالبلور..".."كاد ان يلقي بنفسه من الشرفة".."يجب ارساله الى العناية المركزة.."على صدى هاته الكلمات التي لم يفهم معناها دخل في غيبوبة قاتلة.... استفاق ذات يوم على صداع رهيب ينخر رأسه لم يعرف في اي سجن هو ..الباب موصد باحكام باكثر من قفل و الشباك الحديدي كأنه فتحة الزمن يُفضي الى حقبة زمنية أخرى..لعله يعيده الى أيام الطفولة..هاهو يرى نفسه غرا صغيرا يضحك بملئ شدقيه يداعب كنزه الثمين، انها عربته الصغيرة التي ظل يخفيها تحت وسادته لاكثر من عشر سنوات.. هاهي أمه التي صفعته على وجهه وهو لا يعلم لماذا فعلت ذلك..تُقبل نحوه ..أمسكت بيده ليقوما بجولة على شاطئ البحر كما اعتادا كل نهاية اسبوع ويده الاخرى تمسك بكنزه الثمين ..التقت كعادتها بصديقتها وابنها الذي هو في مثل سنه لتتبادلا أطراف الحديث..لم يكن يرتاح كثيرا لهذا الصغير فهو كثيرا ما حاول سرقة عربته...أدرك منذ الوهلة الاولى انه كان يترصد لعبته مثلما يترصد الأسد فريسته..حاول تجنبه فابتعد لكنه تبعه ..ابتعد اكثر و اكثر متوغلا في شاطئ

البحر وهو يلازمه كظله ..الى ان كشف عن غايته الدنيئة وانقض على لعبته محاولا افتكاكها منه...فامسك بها بكل قوة ..تجاذبا الطفلان طرفي اللعبة وقد علا صوت صياحهما فاقبلت الاُمّان نحوهما مسرعتين..وهما لا يزالان كذلك الى أن وقعا في البحرو جرفهما التيار، وهو مُصر على الامساك باللعبة حتى ان المياه غمرته بالكامل وهو يرفض ان يفرط بها..كان لون المياه يتحول الى أحمر قاتم..شعُر بأن يَدا أخرى تجذب لعبته اكثر قوة من يد الطفل الصغير..يبدو ان أمه قفزت خلفه لتُخرجه من البحر.. نجح في النجاة من براثن الأمواج التي أخذت امه بعيدا معها فآلمه ذلك كثيرا..رحل الطفل الصغير كذلك فلم يهتم لأمره..الشيء الجميل أن لعبته نجت معه..قدم رجال الشرطة ..أمسك بيده احدهم وهو متشبث بلعبته، والشرطي يحاول سحبه بقوة...عم الصراخ والضجيج و صافرات الانذارالمكان..فاذا بألم رأسه يصبح اكثر حدة..سأل من حوله عما يجري و ماذا يريدون منه...فأجابه الشرطي بصوت فيه الكثير من الحدة.." ألا تعلم ماذا فعلت؟؟ ؟؟..لقد قتلت الطبيب و الممرضة بإبرة الحقن وتركتهما غارقان في بحر من الدماء.."...

بعد سنوات طوال قضاها البروفيسور في البحث العلمي انتهى به المطاف مكبل الاوثاق في سجن انفرادي تحت حراسة مشددة..ومرت الايام وهو قابع في غياهب السجون، اما مخبره فقد غادره كل موظفيه الى ان قرر صاحب

العمارة التي يقع بها المخبر ارسال عون صيانة لتفقده...أخرج العون المفاتيح بيدين مرتعشين وفتح الباب..ما إن دخل حتى سمع صدى اصوات قادمة من الداخل.. توجس خيفة ثم استجمع ما لديه من شجاعة و تقدم فإذا بامرأة في أواسط عمرها تكنس المخبر...انها أم البروفيسور....

تواترت الأخبار بين الناس حول شبح المخبر، وهو ما أثار الفزع في تلك المنطقة، وأصبح الجميع يخشى الاقتراب من ذلك المكان المرعب..حتى أن صاحب العمارة

المتواجد بها مخبر البروفيسور قد عرضها للبيع بعد أن تكبد خسائر طائلة..في ذلك الوقت كان البروفيسور لا يزال قابعا في زنزانته وقد نما شعر لحيته ورأسه كثيرا، وكان جسده قد نحل وبرزت عيناه المجعدات من بين حقول الشعر الذي يغطي وجهه فأصبح منظره مرعبا ..بل صار يبدو كهيكل عظمي دفن منذ زمن بين جدران الزنزانة المتآكلة الأطراف...وكان السجان يرأف لحالته الرثة تلك، فيقوم باخراجه من وقت لآخر لكي يستنشق الهواء بعيدا عن ذلك الجو القاتم.. وذات يوم بعدما فتح الز نزانة وأخرج السجين، وكان ممسكا بذراعه لأنه لا يقوى على السير وحيدا...ويتوقف السجان فجأة..فقد شاهد شيئا ما في ركن من أركان الزنزانة المظلمة، فيدلف إلى الداخل ويتقدم رويدا رويدا، ثم يتسمر في مكانه بدون حراك، وكان يجاهد نفسه ليقول:

_من..أنت..!!؟!..لقد كان البروفيسور السجين قابعا في غرفته وحيدا منذ سنوات..هل أنت أمه ؟!!هل القصة التي يتداولها الناس صحيحة إذن؟؟.إني لا أصدق ما تراه عيناي..اخرج من هنا ..اخرج من هنا أيها الشبح..

ويقع السجان أرضا، وهو يتمتم بكلمات غير مفهومة، ثم يغمى عليه...

كان البروفيسور ينظر إليه غير عابئ بما يقول، وكان يشاهد الباب الخارجي مفتوحا، وهي فرصته للنجاة من هذا السجن اللعين..كانت قدماه لا تقويان على السير بعد أن تخدرت في جحيم الزنزانة...ولكنه يستجمع قواه ويتقدم نحو الباب حتى يصل أخيرا، فتتجلى الحرية بيضاء ناصعة خلف ظلمة الأسوار المظلمة.. وعندما هم بالخروج، إذا به يسمع صوت طلقات رصاص أربكته، وسمع صوتا يناديه.."بروفيسور...بروفيسور...بروفيسور.. "

فيجيب مذعورا.."..من...من..يناديني..لا أريد أن أعود إلى ذلك السجن الملعون..اتركوني ...اتركوني وشأني..أنا لم أفعل شيئا يستحق هذا العقاب!!!.."

فيسمع نفس الصوت يقول له"..اهدأ يا بروفيسور..انه أنا صديقك..الطبيب النفساني..لقد كنا في حصة علاج فغلبك النعاس ولم أرد ازعاجك فتركتك تنام قدرما تشاء...ولكن الوقت تأخر، وسأغلق العيادة.."

اضطرب البروفيسور لدى سماعه هذا الكلام، ثم قال متعجبا:"..ولكن..ألست في السجن؟!!..ماذا أفعل هنا في عيادتك!؟..آه..رأسي.. ماذا يحصل لي؟؟..."

يربت الطبيب على كتفه، ويقول"..لا بد أنه كابوس يا صديقي..لا تجزع!!.. يبدو أنني اهتديت إلى السبب الذي جعل كل هذا يحصل معك..إنها نبتة الدالما التي كنت تجري عليها تجاربك في المخبر..فقد اكتشفت أن لها افرازات خطيرة.. ويمكن أن تسبب لمن يلمسها أو يشمها في تغييرات مرفوليجيةو حتى فقدان الذاكرة...أظن أن هذا هو السبب الرئيس الذي جعل هذه الهلوسات لا تفرقك.. ومادمنا عرفنا مصدر الداء فالعلاج سيكون في المتناول بإذن الله..لقد أرسلت عينة منها لكل المختبرات، سيقوم جهابذة الباحثين بدراستها...."

لايصدق البروفيسور ما يسمع، ولكنه اطمأن لذلك، فيقول بعد أن علت محياه ابتسامة جافة غابت عنه منذ مدة..ويقول.."...شكرا يا صديقي على وقوفك بجانبي في مرضي هذا...لقد اطمأن قلبي...عذرا على الإزعاج..ملتقانا في حصة علاج أخرى ان شاء الله.."

يغادر البروفيسور وقد عاد لعينيه بريقهما بعد تلك المحادثة، بينما يغلق صديقه الطبيب النفسي العيادة، ليقفل راجعا إلى منزله بعد تعب يوم كامل.. ولكن يسمع صوت حشرة ما في الداخل...فلا يعيرها اهتماما، وإذا بالصوت يزداد ارتفاعا.. فيفتح العيادة، ويعود أدراجه وقبل أن يفتح الأضواء يسمع أحدا ما يقول له"..لقد أخطأت في التشخيص أيها الطبيب"..وكان صوتا أنثويا..فيرتاب، ويفتح النور، ويظل يمشط العيادة جيئة وذهابا، ثم يهرب إلى الخارج بعد أن

أقفل الباب، فيسمع صدى قهقهات عالية، وصوت امرأة تقول له.."..انها أنا..أم صديقك..البروفيسور"...

حرب الشياطين

كان "بعل" يمشط أرجاء السجن جيئة وذهابا ...وكان يحدق بعينين حادتين يتطاير الشر منهما مردة الشياطين القابعين وراء القضبان...ثم ما يلبث أن يهز رأسه إلى السماء ويفتح ذراعيه فيتكشف نصف جسده الضخم المنتصب فوق أرجل أشبه بأرجل عنكبوت كبير..ويصيح بعل بصوت مرعب ارتجت له جدران السجن العظيم الرابض فوق جزيرة نائية:

_أيها الشياطين العصاة..!! لقد جمعتكم هنا بعد أن استفحل تمردكم ولن تغادروا هذا المكان ما دمت على قيد الحياة...إني أرى في نظراتكم الحاقدة كل أنواع المكر والخداع...ولكن هيهات ..أنا بعل أعظم قادة الشياطين وملك السجن.. ألم تصلكم أخباري...!!؟؟..لا سبيل للنجاة من سجن بعل ...ملك ملوك الشياطين..!!

ويلقي فجأة بأحدى أرجله فتمسك برأس شيطان كان يحاول التسلل من بين القضبان، فيقطعه ثم يمزقه أشلاء بيديه القويتين، ويزمجر صائحا:

_هذا مصير كل شيطان يحاول الهروب..تبا لكم!! اقبعوا في مرابضكم أيها الجيف!!

ويغادر ملك السجن المكان، بإتجاه غرفة الاستراحة، بعد أن ملأه ذعرا ورهبة...

وفي لمح البصر يدلف إلى الغرفة المتاخمة للسجن..فيلقي بظهره على المقعد المذهب بينما تشابكت أرجله الحادة فيما بينها..وأغمض عينيه بعد أن شعر ببعض التعب...وقبل أن يغفو يدخل عليه شيطان الحرب" أغاريس" مزمجرا.. فينتفض بعل من مكانه متعجبا من قدومه في هذا الوقت من العام...

يخلع أغاريس عن رأسه خوذة المحارب، وكان يستشيط غضبا...وبعد أن جلس وهدأ نوعا ما يقول:

_..أتعلم يا بعل.. إن بعض سحرة البشر يحاولون استحضارنا لاستخدامنا في محاربة بعضهم بعضا...آخ..آخ...هل يفعل هذا بآغاريس القائد العام لثلايين كتيبة من الشياطين!!!؟؟...أبعد أن خضت حروب دامية لدحر جيوش الشياطين الغزاة ..أصبحت اليوم لعبة بين يدي شياطين البشر.. آخ..آخ....ألا يعلم هؤلاء أن لي القدرة أن آخذ عقل أي إنسان على وجه هذه الأرض وإني أنتظر الأمر من القيادة العليا لأفعل ذلك..

_هدئ من روعك يا أغاريس ...ومن هؤلاء البشر الذين يحاولون استحضارك..

_إنه ساحر من بلاد بابل..يقال له هازارد ..وأتباعه..

_هازارد. لقد سمعت أخبار هذا الساحر في الملأ الأعلى..يجب أن نتحاور معه..

_ولكن قائدنا سليمان حذرنا من التعامل مع سحرة الإنس...

_سليمان مات الآن يا أغاريس...وإني سمعت أخبارا يتادولها أهل الأرض السفلى بأن كاتب سليمان قد خبأ تحت عرشه مجلدات تصف كل أخباره.. ويقولون أنه استخدم السحر لاخضاع الجن والشياطين...

_أحقا يعتقدون هذا؟!!....

_هذا ما يتداوله بعض البشر أيضا..

_كلانا يعلم أن سليمان ليس بساحر..ولكن دعهم في ضلالهم فقد يفيدنا ذلك في السيطرة على عقول الناس، ثم نسيرهم كيفما نشاء..فكثير من بني البشر يحسدون سليمان على ما آوتي من ملك..والحسد هو أعظم مرض يهتك القلوب

..وهو الذي أنزل أبانا عازازيل من الجنة..

_إذن لا ضير في أن نتعامل مع الساحر هازارد..

_وفق شروطنا...سنقوم أولا باختباره..فهؤلاء البشر لا يؤمن لهم جانب...

_سنخيره بين الموت أو ارتكاب الفاحشة مع أهله

_ولماذا نفعل ذلك؟؟

_لنعلم ان كان مستعدا للتضحية بأي شيء من أجل الوصول ٱإلى غايته...فلن نتعامل مع ضعاف القلوب..

_ولكن صنيعنا هذا سيجعلنا من المارقين...أوليست مهمتنا التي أوكلها لنا سليمان قبل وفاته هي محاربة مردة الشياطين وايداعهم السجن...

_ابليس زعيمنا الآن ..وهو غير سليمان ..وأظن أنه لن يرى مانعا في ذلك ما دمنا سنقوم باغواء البشر..وهذه المهمة الأولى التي كلف بها أسلافنا قبل مجيء سليمان...

أرسل أغاريس نفسا عميقا اختزل حجم الهم الكبير الذي يؤرق تفكيره...وكان لكلام بعل وقع كبير عليه، وانصرف كل منهما بعد ذلك لشؤونه..

كان هازارد في ذلك الوقت قد اتخذ له بيتا منزويا في أطراف بابل لكي لا يزعجه أحد من المتطفلين...وكان يحاول فك رموز غريبة قرأها في مجلدات ورثها عن سحرة بابل القدماء حتى أن غبار تلك الكتب والمجلدات المتراكم التصق بشعر لحيته المتجعد...ينفض الساحر الغبار بحركة سريعة ثم يعود إلى أوراقه يتفحصها بعينين ثاقبتين...وكانت أضواء الشمس المتسللةمن الشباك المحاذي لطاولة ملئت أوان ومستحضرات عجيبة فترسم الظلال أربع مربعات فوق تلك الطاولة حتى

بدت كأنها أشباح تحيط بالمكان فتزيد تلك الغرفة المظلمة غموضا وريبة..وكان هازارد يقول بصوت خافت:

_..لا بد لي من طريقة لأستحضر كل المخلوقات الغير مرئية...لن يهنأ لي بال قبل أن أصبح أعظم ساحر في أرض بابل...

وبينما كان غارقا في أفكاره إذ به يسمع صوت طرقات خفيفة على الباب فيذهب باتجاهه ممتعضا.. فهو لا يريد أن يقطع خلوته أي كان..ويفتح الباب فإذ به أمام شيخ هرم ..يتدلى شعر لحيته الأبيض أمامه، وكان ممسكا بين يديه بضفدع غريب، وكان يربت عليه ..فيتعجب هازارد من هذا الزائر الغريب..ويقول:

_..كيف يمكنني أن أساعدك ؟؟..أظنني مشغول أيها الشيخ..

_اسمح لي بالدخول أولا يا هازارد...

_حسنا..حسنا..تفضل

وبعد أن جلس الشيخ، أحضر الساحر هازارد بعض الطعام والشراب ليكرم ضيفه وهي عادة عند أهل بابل..ولكن الأخير رفض تناول أي شيء..

فاستغرب هازارد لصنيعة، وقال:

_هل أنت شيطان من الذين منع عليهم الطعام ؟..تمثلت على شكل بشر؟؟

_وهو كذلك...أنا" بوباس" شيطان العلم والمعرفة..

وتوردت أسارير وجه هازارد، ولم يبدو عليه أي خوف..بل أحس بنشوة الانتصار فهاهو ينجح في استحضار أحد الشياطين..ولكنه لا يزال متشككا من حقيقة هذا الشيخ، ويقول:

_ولماذا جئت إلي؟؟..وكيف أتأكد من صدق كلامك..

_أنا مبعوث ملك السجن "بعل"و أمير الحرب "أغاريس"، وقد بلغنا أنك تود استحضار الشياطين منذ مدة..وقد جئت لأتحاور معك..

_فعلا..أريد أن أمتلك قوة سليمان...فسحرة هذا العصر مجرد مشعوذين يخادعون الناس بحيلهم..وقد قرأت في الكتب أن الساحر يعظم شأنه إلى تعامل مع قادة الشياطين ..وها إن أحدهم هنا في منزلي..وإني مستعد لأن أنفذ كل شروطكم من أجل الوصول إلى غايتي..

وما إن أنهى كلامه، حتى قفز الضفدع من بين يدي العجوز..وإذ به يتكلم ويقول:

_لقد جئتك في صورة ضفدغ يا هازارد..أنا بعل ملك ملوك الشياطين...

ويتراجع هازارد للخلف، وقد ذهل لما رأى، وكان يقول:

_ما هذا..!!ضفدع يتكلم..ملك ملوك الجان يتمثل على شكل ضفدع صغير...

ويخرج الضفدع الطويل لسانه الطويل، ثم يردف قائلا :

_في عالمنا..الضفدع رمز الحكمة..لأنه من الحمق أن تحتقر صغائر الأشياء..لا تثر غضبي أيها البشري فأرمي بك في سجن ليس له قرار لا ينجو منه انس ولا جان.. وهاهو مبعوثنا "بوباس " كي يمدك بشروطنا..

ويقفز الضفدع بين يدي الشيخ من جديد..وبعد أن يربت عليه..يقول الشيخ الحكيم:

_..أولا عليك أن تفاحش أهلك..ثم تقتلهم وتدفنهم هنا تحت سرير غرفتك... وعليك أن تقتل عشرين طفل صغير لم يتجاوز العشر سنواتم بعد أن تفاحشهم وتجمعهم أعضاءهم التناسلية في قدر كبير..وعليك أن تدفن رفاتكم كذلك تحت

مضجعك..وعليك أن تقتل عشرة صبايا عذارى..ومن المستحسن أن تفعل بهن ما فعلت بالآخرين...ان قمت بذلك في مدة لا تتجاوز الشهر...فستكون لك القدرة على استحضار قرين كل شخص متوفى..وسيتجلى على صورة الميت أمامك..هذا شرطنا الأول فان نجحت في مهمتك.. فلنا لقاءات أخرى...

ثم ما يلبث الضفدع أن يتحول إلى إنسان على صورة ملك عظيم...

فيجزع هازارد هذه المرة، ويقع أرضا..و إذ بالشيخ الحكيم يقول:

_أين رباطة جأشك يا هازارد !؟؟!..إن ملك الملوك "بعل" عندما يريد الاختفاء عن الأنظار يتجسد في صورة ملك..

وما إن أنهى كلامه حتى اختفى الاثنان من الغرفة..وبقي هازارد شارد الذهن، فاتحا ثغره...لا يصدق ما رأى...ولكنه في قرارة نفسه كان عاقدا العزم على المضي قدما..وبعد أن استفاق من غفوته خرج لتنفيذ الشرط الأول الذي وضعه له شيطان الحكمة بوباس..وكان الأخير قد أمده قبل مغادرته ببعض الخلطات الكيميائية التي ستساعده ..فدله على عشبة تستعمل للتخدير وأيضا على طريقة لصناعة أمراض ثم علاجها...

وكان هازارد يستدرج الناس عبر نشر الأوبئة في أنحاءبابل..فدب الخوف في تلك المدينة الهادئة..فلا مناص لسكانها سوى الاستنجاد بالساحر هازارد الذي كان يملك العلاج ..فيعالج من يشاء ويخدر الصبايا والأطفال فيفعل بهم الأفاعيل قبل أن يقتلهم ويدفن رفاتهم تحت سريره كما أمره الشيطان...ويظل كذلك يخادع أهل بابل وينكل بهم حتى أنه قتل عشرات النساء والأطفال في مدة أقل من الشهر، فبلغ خبره إلى القيادات العليا للشياطين ..و سر كل من أغاريس وبعل لصنيعه، وعلا شأنه بين الناس فصار يكنى ب"الساحر العظيم هازارد"..ولكن طموحه لن يتوقف عند مجرد لقب، فكان يطمح للعظمة الحقيقية..

وقبل انتهاء مدة شهر كان هازارد قادرا على إحضار قرين كل انسان ميت... فكان كل من يتوفى له عزيز يقصد هازارد فيأمر قرين المتوفى بالمثول أمامه فيظهر القرين على صورة حقيقية لانسان كان قد رحل عن العالم منذ مدة..ونال هازارد جراء ذلك شهرة ما بعدها شهرة في كامل أنحاء بابل...وكسب أموالا طائلة، فصار في ظرف زمني قصير من أعيان بابل..حتى أنه سكن قصرا مجاورا للملك..وذات مساء عندما كان منغمسا في ملذاته سمع طرقات خفيفةعلى الباب..وظن أنه أحد الخدم، وصاح قائلا:

_ماذا تريد أيها اللعين؟!!

فأجابه الطارق:

_هذا العين..جعل منك ثريا..

_بوباس..!!!..شيطان الحكمة..عذرا..ظننت..

ويقاطعه الشيخ العجوز بوباس قائلا:

_مهمتك التالية هي جمع ما يمكن جمعه من كنوز الأرض وهو ما سيسهل لنا بناء جيش عظيم تكون أنت قائده...سياسعدك في استخراج الكنوز كل من"فاشاغو"و "سامينا"..وقد كان سليمان فيما مضى يستخدم الأمير فاشاغو لاسترجاع الجيوش الضائعة في الأرض السابعة...إنه شيطان محنك قادر على استرداد كل الأشياء الضائعة كما أن له قدرة عجيبة على معرفة أسرار الماضي مهما كانت مخفية عن أعين الناس..فهو سيدلك إلى كنوز الحضارات في الضائعة وأنت عليك استرجاعها مهما كانت غارقة في القدم...

كان هازارد يستمع إليه بانتباه...ثم يتمتم قائلا:

_وماذا عن الشيطان"سامينا"؟؟

_سامينا شيطان قادر على التلاعب بأي كان...لقد مكنناك يا هازارد من استحضار قرائن الأرواح..ولكن سامينا لن يحضر معه إلا من مات على ذنب عظيم..وسيخرجه للناس في صورة بطل..يصبح حينها القتلة والمغتصبون مثلا عليا يذكرهم الناس؟؟؟

_ولماذا يفعل هذا؟!ماذا سنجني من وراء هذا؟؟

_لا تنسى أن مهمتنا الرئيسية التي نزل من أجلها زازابيل، القائد الأعظم، هذه الأرض.. هي اغواء البشر!!..هل يجب أن أذكرك بهذه المهمة في كل مرة؟؟؟..

يصمت الشيخ الحكيم بوباس قليلا، ثم يردف قائلا:

_سوف يساعدك سامينا على استحضار أرواح القراصنة الذين ماتوا غرقا وسوف تدلنا حتما إلى كشف الكنوز الغارقة و بمساعدة فاشاغو سوف نجمع كل الكنوز التي ابتلعتها البحار والمحيطات..

ويهم شيطان الحكمة بالمغادرة، ولكنه يتوقف قليلا، ثم يقول:

_سيمثل لك سامينا على صورة حمار أو انسان أحدث أما فاشاغو فلا أحد قادر على رؤيتك ..سوف تأتيك تعليماته من حيث لا تدري..

وبعد مدة وجيزة من هذا اللقاء..استولى هازارد على جميع كنوز الأرض والمحيطات وكان يتقاسمها مع قادة الشياطين..فاشترى الساحر العظيم معظم قصور بابل ..وكان قد شيد حدائق معلقة في السماء تحيط بها جنان تخلب الألباب...وكان الشياطين والملوك يتوافدون على أبواب قصوره فيحسن وفادتهم فقد نال من الشرف والثراء الشيء الكثير....

بعيدا في الملأ الأعلى كان" بعل" و"أغاريس" يتابعان أخباره..وكان قد نظما اجتماعا طارئا بحضور قادة آخرين من الجان...

يقول بعل مخاطبا الوفود:

_أظن أننا نجحنا في صناعة ساحر عظيم يتنافس الملوك للوقوف عند بابه.. وأظن أنه آن الأوان لنوحد كل الممالك تحت قيادة هازارد..وإنك يا آغاريس خبير بالحرب و قادر على أن تعينه على غزو الأرض...

ويقول أغاريس:

_وهو كذلك.. سننشئ جيشا عظيما لا يشق له غبار، و في ظرف أيام معدودات.. لن يقف أي كان في طريقنا...

ويقاطع بوباس شيطان الحكمة حديثهما قائلا:

_أظن أن تفرغكما لشؤون الأرض قد أنساكما ما يدار هنا...فقد تناهى إلى مسامع الشياطين المؤمنين ما نحن بصدد القيام به في الأرض..فقد بلغني أن "بايمون"شيطان القوة والحكمة وقد كان قائدا على مائتي سرية في عهد سليمان، مستاء من تحالفنا مع سحرة البشر ويعتبر ذلك خروجا عن تعاليم سليمان...وقد أيده في ذلك خبير اختراق الحصون "أيوم"و قائد المنطقة الغربية"ايبوس"...

ويستشيط أغاريس غضبا، ويقول:

_سحقا لهم...لن أتراجع عن هدفي حتى وإن كلفني الأمر شن حرب على هؤلاء الشياطين؟!!!

ويؤيده "بعل"..إذ يقول:

_ان لم يلزموا جحورهم..سأطلق سراح مردة الشياطين من السجون، وأسلطهم على هؤلاء..فمهما بلغت قوة بايمون و خبرة أيوم لن يستطيع أي كان مقارعتنا... لقد ولى عهد سليمان ...إنه عهدنا...عهد زازابيل العظيم؟؟!!!

تنفس فجر يوم من أيام مايو الحار بتؤدة، وكانت الأجرام السماوية تحيط بالغسق فتضفي على كوكب الأرض لونا بنيا قاتما...كان العالم السفلي والعلوي المحيط بالأرض في ذلك الفجر على غير عادته ينذر بشؤم قريب...بعيدا في السماوات العليا وقف أغاريس على الجانب الشرقي وقد جمع خلفه جيشا عظيما من أخطر أقوام الشياطين وكان إلى جانبه القائد بعل وقد جمع خلفه كذلك كل الشياطين الذين جمعهم سليمان في سجن الجزيرة...وفوق ذلك الجيش العظيم تبرز كرة ملتهبة من النيران وكأنها قطعة اجتثت من قعر الجحيم..وكان يظهر جليا داخلها شيطان عظيم فاتح جناحيه الكبيرتين منتظرا الهجوم...وكان في قد اجتمع في الجهة الغربية من السماء العليا بايمون وأتباعه من الشياطين المنسلخين عن زازابيل والذين ظلوا على وفاء لقائدهم سليمان..

ويلتحم الجيشان بعد أن هبط زازابيل بنفسه لكسر ذلك التمرد..فاشتعلت المجرات والكواكب لهول تلك المعركة فكان اللهيب المستعر قد عم

كافة أرجاء السماء يرافقه دوي الانفجارات العظيمة جعلت المجرات تخرج عن مدارها...وظلت المعركة حامية الوطيس لأيام...

في ذلك الوقت بالذات كان كبير السحرة هازارد قد جمع أتباعه بأمر من قادة الشياطين وأعلن الحرب على كافة ملوك الأرض، وكان متحصنا بمدينة بابل التي أحاطها بأسوار شاهقة كالجبال...بينما يعسكر خلفها أعظم ملوك الأرض في ذلك الزمان، وكان شابا يقال له ذو القرنين لأنه كان يرتدي خوذة أعلاها قرنا ثور... ودقت الطبول فحطت الحرب أوزارها فهجم ذو القرنين على مدينة بابل المحصنة بينما كان هازارد مستميتا في الدفاع ..وكان يستخدم أفتك أنواع السحر لارباك جيوش العدو الذين كانوا متسلحين بالصلابة والايمان...وكان الساحر ينثروا على الأعداء مستحضرات غريبة تعمي أبصارهم فيسهل الفتك بهم مما أجبر ذو القرنين

على التراجع...

أما في السماء العليا فقد خمدت النيران..فلفظت المجرات أشلاء الشياطين المتناثرة..وكان بايمون قد تلقى هزيمة نكراء جعلت أغلب أتباعه الذين نجوا يختفون بعيدا في المحيطات وفي أبعد المجرات...بينما أدى قائدهم بايمون في ذل بنود الطاعة والولاء لزازبيل العظيم...وكان في ذلك الوقت ملك السجن بعل منتشيا بالانتصار..بينما ظل أغاريس صامتا لا تبدو عليه علامات الفرح، فيقول بعل:

_مابك يا أغاريس؟!!هل ستنكد علينا فرحتنا بالنصر؟؟

_لقد بلغني للتو خبر هزيمة مندوبنا في الأرض هازارد الذي لقي حتفه!!؟؟

_حقا!؟؟..سحقا لذلك...

_لقد أوهمه ذو القرنين بالتراجع قبل أن يهاجمه في جنح الليل وينجح في اختراق أسواره العالية فلم يفده لا سحره ولا طلامسه في شيء...

_لا تبتئس يا أغاريس..فما د منا قد قضينا على تمرد الشياطين فنحن في موقف قوة..سنظل نغوي البشر حتى يخلق في الأرض ما هو أشد شرا من سحر هازارد....

مهرائيل.. راهب الشيطان

كان القس بطليموس كعادته يتفحص الكتاب المقدس، وكان قد اتخذ كرسيا في آخر القاعة الخالية.. فالكنيسة لم تستقبل أي وافد منذ الأحد الفارط..وكان يبدو على القس علامات التقدم في السن.. ورغم التجاعيد التي غطت معظم أنحاء جسده فهو لا يزال يتمتع بالحيوية والنشاط..كانت عيناه الزرقاوين تدققان النظر في حروف الكتاب المزخرفة والتي خطت بريشة فنان أبدع في تطريز لوحة عجيبة جمعت بين الفن والقداسة..ويغلق القس الكتاب بعد أن شعر ببعض التعب..وينهض من مكانه متثاقلا، فيتدلى ثوبه الأبيض الطويل حتى يلامس القاعة...ويظل يمشي بين صفوف الكراسي التي كانت تتوارى خلف سترته المرصعة بخطوط صفراء و حمراء جميلة..وكان الصليب الذهبي الذي يزين صدره يصدر أصواتا رقيقة عندما يلامس الخطوط المذهبة، وكانت هذه الأصوات أشبه بأجراس الكنيسة عندما تقرع أوقات الصلوات ..وفي طرف القاعة كان الأسقف جاك كبير القساوسة متكئا على أريكته المذهبة، وكان يغط في نوم عميق، ورغم صغر سنه مقارنة ببطليمس فقد كان تدرجه في رتب الرهابنة سريعا، فقد كان خطيبا موهوبا بالفطرة وعادة ما يأسر قلوب مستمعيه بلسانه العذب..

يقترب منه القس بطليموس، ثم يجلس بجانبه ويقول بصوت مرتفع:

_يبدو أنك نمت أيها الأسقف..

فيستفيق الراهب، ثم يفرك عينيه ويقول:

_امم...آه...نعم..لقد غلبني النعاس...كم الساعة الآن؟!!

_منتصف النهار...مازال في عمر هذا النهار وقت كثير..

_أوه..نعم...بخلاف الأعياد و أيام الآحاد والعطل فنحن عاطلون عن العمل، وها نحن نصاب بالضجر...

_فعلا...فعلا..ومن كثر هذا الضجر يحدثني الشيطان بين الفينة والأخرى بأن أتخلى عن المهمة المقدسة، وأعيش ما بقي لي من عمري كباقي البشر خارج أسوار هذه الكنيسة...

_...وهل كتب علينا أن نموت بين جدران الكنيسة..ألا تظن أن الشيطان عندما وسوس لك يريد لك الخير..

_الخير...ولكنه أخطأ في حق الرب...

_كلنا يخطئ ويتعلم..اننا نشقى ولا نجني شيئا..ألا تعتقد أن الخلاص في اتباع طريق آخر..

_أي طريق؟؟..طريق الشيطان مثلا...

_لقد كان عزازيل عندما استوطن الأرض أول مرة عبدا صالحا بل حارب مع الملائكة قومه من مردة الجن و هزمهم فرفع إلى السماء، ولكنه عوقب لمجرد أنه أبدا رأيه في خلق آدم..ألا تظن أنه ظلم؟؟؟قديما في القرون الأولى..ظهرت جماعة الغانوصيين وكانو يعتقدون بأن الشيطان فيض من الله نثره حول الأرض وهو من يتحكم في العالم المادي الملموس...وهو بذلك يساوي مرتبة الإلاه...وجاءت بعدهم جماعة البوليصيين وطوروا هذه الفكرة فاعتقدوا أن الشيطان هو الخالق الحقيقي للكون..وهي آراء ولها عدة مناصرين....

_وهل تميل إلى هذه الاعتقادات أيها الأسقف..؟!!

_انا لا أميل لشيء..ولكنني ضجرت من رتابة الحياة..وإن المسيحية في خطر ما لم تطور من نفسها..فربما تندثر ما لم نخرجها من جدران الكنيسة...

_وماذا تقترح..؟!!.. أظن أن تركنا الكنيسة ليس الحل الأمثل...فالناس اعتادوا على وجودنا هنا ولن يستسيغوا وجودنا خارج أسوارها..ولن يسهلوا اندماجنا في الحياة بينهم..

يجب إذن..أن نمتلك القوة..يجب أن نقنع الملوك بضرورة خوض حرب دامية فنخرج من هذه الرتابةو نكون أكبر المستفيدين من هاته الحرب..فيعلو شأننا ونجني الشرف الكبير..

_أرى في كلامك أنك تطوق لحرب صليبية أخرى..وهل سيكون من السهل اقناع الملوك بذلك بعد الخسائر الماظية الفادحة التي تكبدتها الجيوش في الحروب السابقة..

_سنستعد لذلك...حتى أنني أفكر في اعداد جنود تباركهم الكنيسة..

_ماذا..!!!جنود تحت اشراف الكنيسة..

_نعم فرسان أشداء، مقاتلين أقوياء، سوف نزرع في قلوبهم الورع والشجاعة وندربهم على شتى أنواع القتال..

_ومن أين سنأتي بهؤلاء المقاتلين؟

_ نجمعهم من شتى الأقطار..من فرنسا و أنقلترا وكل أنحاء أوروبا...من السهل تجميعهم أيام الآحاد والأعياد...ونطلق عليهم إسما مأثرا...امممم..فرسان الهيكل مثلا...

_أظن أنها فكرة صائبة...فلنسارع إلى تنفيذها..

ويبتسم الراهبان..ثم يعود كل منهما إلى ضجره بانتظار يوم آخر قد يأتي بالجديد....

كان الفجر ذات صباح من شهر أغسطس يرتدي لونا بنيا قاتما على خلاف عادته، وكان غبار الخيول والعربات التي كانت تتقدم بإتجاه القدس قد جعل في الفضاء سحبا داكنة غطت جمال الأفق غير مبالية بالهضاب و التضاريس الوعرة التي تعطل تقدم جيش الصليبيين العظيم...ويبرز من بين الصفوف مقاتل يمتطي خيله في شموخ وقد زين صدره بصليب أحمر مرصع بالذهب، كان يركض إلى الأمام متقدما عن تلك الصفوف، ثم يستدير نحوهم، فتتوقف جحافل الجيوش فجأة، ويصيح فيهم قائلا:

_يا جنود الرب!!..إن أنطاكيا على مسافة ميلين من هنا والقدس هدفنا الأوحد ليست ببعيدة..فلنتوقف لنأخذ قسطا من الراحة هذا اليوم لأننا سنهجم على العدو قبل بزوغ شمس يوم الغد..إنها حربنا المقدسة أيها الجنود ..يجب أن نسترجع ما نهب منا...أعداؤكم هدموا كنيسة القيامة..ولن يطيب لهم مقام بعد الآن في أرض الرب....هذه الحرب باركها البابا وباركها الرب فكونوا جنودا أشاوس لا يشق لكم غبار في أرض المعركة..فلتستريحوا الآن من عناء الطريق ....

وتتعالى أصوات من وسط الجماهير.."إن القديس جاك يأمركم بأخذ يوم من الراحة، ثم الهجوم على الأعداء في الصباح الباكر"..

وتتوارى سحب الغبار فجأة، ويعم الهدوء والسكينة ذلك المكان، وتعود للشمس اشراقتها البهية، فكانت تضيء واجهات الدروع والسيوف غير مدركة لظلام الموت الذي تخبئه بين أطرافها..

مع خيوط الفجر الأولى تشابكت السيوف وتدافع المقاتلون وتناثرت الجثث والدماء في كل شبر من أرض أنطاكيا، وكان جنود السلاجقة المسيطرين على تلك

الأرض يتهاوون الواحد تلو الآخر...وكان فرسان الهيكل المقاتلون الأكثر بروزا في تلك المعركة..وكان القديس جاك يدير المعركة بفطنة و دهاء شديدين موجها فرسانه الذين اختارهم ودربهم تحت اشرافه، فكان النصر العظيم للصليبين في أواخر أغسطس من ذلك العام ...وتوجه بعدها الجيش الصليبي يتقدمهم فرسان الهيكل نحو القدس، ويصيح قائدهم_ القديس جاك_ بعد شهر من محاصرة مدينة القدس المحاطة بأسوار شاهقة كالجبال:

_يا جنود الرب..إن حربكم المقدسة لا يجب أن تنتهي عند هذه الأسوار... فعلو أسوارهم لن يقف حاجزا أمام علو همما..يا فرسان الهيكل..أنتم من اختاركم الرب لتحرير القدس..تقدموا فقد جاءت اللحظة الحاسمة لتغيير مصير العالم!!!

وما إن أنهى القديس جاك كلامه حتى هجمت الجحافل على القلاع وكان الفرسان يتشبثون بالجدران كخلية النحل بينما كانت عربات المنجنيق ترسل كراتها الملتهبة فتدك بها الأسوار فتتهاوى وتسقط الأعمدة العالية أرضا من هول الصدمة..وكان الجحيم قد بسط لهيبه فوق تلك الأرض المقدسة فحطت الحرب أوزارها، وغدا الموت فيها مشهدا روتينيا حتى أن الدموع حبست في جفونها وأصوات الصراخ والعويل بحت في حناجرها..وكان القديس جاك يمشط أرض المعركة بسيفه البتار لا يهاب أي خصم مهما كانت قوته، فيقتحم فرسان الهيكل رفقة قائدهم أسوار القدس العنيدة ...وفي ظرف ساعات من الغزوة سقطت القدس بين أيدي الصليبيين..وأضحى سكانها بمختلف دياناتهم أسرى لدى المحارب القديس...ويأمر جاك المنتشي بالنصر أتباعه بالاحتفال بالنصر العظيم حتى مطلع الفجر..وتوقف الجنود عن القتال وهدأت المعركة.. ووقعت معاهدات الهدنة بعد أن دفن تحت أنقاض القدس ما يقارب الستين ألف شخص...ليعلن بعدها عن قيام مملكة القدس الصليبية فوق تلك الربوع...

وكان بطليموس رغم سنه المتقدمة حاضرا في تلك المعركة..وبعد أن خفت صوت السيوف ولفظت آخر الأنفاس وجثمت الخيول في مرابضها..يتقدم القس العجوز ممتطيا خيله المرصعة بألوان زاهية، وبعد أن يعينه أحد الجنود على النزول من أعلى الخيل، يقول وهو يربت على كتف القديس جاك:

_إنه لنصر عظيم أيها الأسقف، لقد نجحت في المهمة المقدسة التي أوكلها لك الرب، فهنيئا لك ولفرسانك البواسل...فرسان الهيكل..سوف تنالون شرف الملوك لدى عودتكم إلى دياركم.... ذات مرة بعدما طردت الملائكة قوم الجن من الأرض فاستوطنوا المحيطات، حاول عازازيل لم شتاتهم وغزو الأرض من جديد..ليجد ابليس واتباعه أمامهم قائدا هماما يدعى مهرائيل فدحض شرهم وقضى على كل أتباع زعيم الجان المتمردين عازازيل..وإنك أيها الأسقف أعدت لهذه الأرض المغتصبة شرفها كما فعل مهرائيل من قبل..لذلك أطلقنا عليك أيها القديس جاك لقب.."مهرائيل"..

وغمرت النشوة الحشود وتعالت الأصوات..وكان فرسان الهيكل يصرخون بملئ حناجرهم.."مهرائيل...مهرائيل...مهرائيل...!!!"...

ويقول بطليموس مستغربا:

_انهض أيها الأسقف..

فيتقهر قليلا القديس جاك من فوق أريكته حتى كاد يقع أرضا، وكان يحدق ببطليموس وهو يفرك عينيه، فأردف الأخير قائلا:

_ يبدو أنك حلمت حلما مزعجا..من مهرائيل هذا الذي كنت تناديه أثناء نومك؟...

ويظل القس جاك صامتا وكأنه لا يعير كلامه أي اهتمام..وينهض من مقعده

متثاقلا...وكان يمشي بتؤدة، ويقف فجأة ويصوب نظره نحو بطليموس، ويقول:

_تبا..لقد كان حلما جميلا...ليته لم ينتهي!! لماذا أيقظتني!!..خلت نفسي في بيت المقدس بينما أنا قابع هنا لم أغادر الكنيسة ...

ويمزق السكون المخيم على المكان صوت قهقهات عالية آتية من المقاعد الخلفية لقاعة الجلوس...فإذا شخص ما جالس في آخر القاعة لم ينتبه لا الأسقف ولا القس لوجوده، فيتجهان صوبه، وقبل أن ينبسا ببنت شفة، يقول الزائر الغريب:

_أنا الدكتور ادموند طبيب نفسي.. قد لا يبدو وجهي مألوفا لكما ولكنني كثير التردد على هذه الكنيسة..

فيقول الأسقف جاك:

_وما سر هذه الضحكات الساخرة؟!!

_لقد كنت أتردد على كنيستكم منذ مدة ..وكنت أعلم بحكم اختصاصي النفسي أنك، ومن خلال خطاباتك في الآحاد و تصرفاتك الشاذة، أنك غير مقتنع بما تفعل وذلك على خلاف زملائك في الكنائس الأخرى..فتيقنت أنك الهدف المنشود

_أوه...إنها حصة علاج مجانية إذن..

_لا أبدا..لدي عرض...

_وماهو؟

_لما لا نحول هذا المكان من كنيسة لعبادة الرب إلى كنيسة لعبادة الشيطان؟!

فيضحك القسان بصوت مرتفع، ويقول بطليموس مازحا:

_أظن أننا سنرتاح حينها من دفع الضرائب الحكومية المجحفة..

_وهو كذلك فلا يوجد أي قانون يلزم هذا النوع الجديد من الكنائس بدفع الضرائب ..

فيقاطعه جاك قائلا:

_وما المنفعة التي سنجنيها من وراء ذلك؟

_ستكون كل ملذات الدنيا بين يديك..فالشيطان يجازي أتباعه في الدنيا لأنه مالكها..ولينتظر الآخرون نعيم الآخرة المزعوم...هذا ما توصلت إليه بعد عشرين عاما من دراستي لمختلف تقلبات النفس البشرية...

_إنه عرض مغر أيها الطبيب...قبل ذلك لدي استشارة..

_حسنا..تفضل!!

_اني كثيرا ما أحلم أنني قائد عظيم.. قمت بقيادة جيش صليبي كبير لتحرير القدس ..هل لهذا الحلم أي تفسير نفساني؟!..

_لا بد أنها بشارة من الخالق الحقيقي للدنيا..فأنت ربما ستتزعم جماعة تغزو بها العالم وتحرره من الضلال كما فعل أسلافك...فنفسك الباطنية تحدثك بقبول العرض حتى قبل مجيئي...

كان لهذا الحوار الذي دار بين القسين والطبيب النفسي وقع كبير على نفسيهما ولم يناما تلك الليلة، وكان جاك يهتف في نفسه:

_لا ضير في أن نجرب.. فأنصار الشيطان أكثر من أنصار الرب في عالمنا هذا، وحتما سنجد أتباعا كثيرين.....

كانت نسمات الصباح الأولى تداعب أهداب الصبي بول، وتظل تلك البرودة

المنعشة تغازل أطرافه الصغيرة حتى تجبره أخيرا على فتح عينيه...وكان الصبي الشريد قد اتخذ الشارع المتاخم للكنيسة الغريبة الموشحة بالسواد، مأوى له في تلك الليلة...وينهض متثاقلا فيبرز من خلف ثوبه المرقع جسده النحيل...فيسير بإتجاه الكنيسة لعله يظفر ببعض الطعام فبطنه الخاوية تتأوه من شدة الجوع ..كيف لا وهو قد قضى سنواته العشر متمعشا من صداقات الأديرة والكنائس...

ويدلف الكنيسة بحذر..فاعترضه عباد مرتدين أثوابا سواء غريبة تتدلى من فوق رؤوسهم حتى تلامس القاع...وكان هؤلاء العباد منتشرين في كل مكان... بعضهم جالسون على المقاعد و آخرون منهمكون في طقوسهم الغريبة...يتخذ الصغير بول له مقعدا وهو مشدود يتابع ما يخفيه ذلك المكان الغريب...كانت رسومات غريبة تزين حيطان الكنيسة بينما تحتل معظم أرجاء الكنيسة نجمة سداسية كبيرة رسم بجانبها صليب مقلوب على عكس الكنائس الأخرى..و كان يتوسط تلك القاعة بناء صغير يقال له مذبح وقد وضع فوقه خنجر مقيد بجانبه ديك أسود اللون..وتحيط بسقف المذبح كؤوسا تحوي عظاما..ويسأل الصغير بول الشخص الجالس بجواره:

_ما هذه العظام ؟!!أيها السيد الكريم

فيتكلم العابد من خلف ردائه الأسود الداكن دون أن يلتفت للصبي، ويقول:

_هل أنت جديد على الجماعة؟؟؟إنها عظام بشرية وقد تم جمعها أثناء آداء طقوس القداس الأحمر...أما الآن فنحن نقوم بآداء طقوس القداس الأسود...

فيتفطر قلب الصغير من شدة الخوف عندما سمع كلام الراهب ..ويحاول أن يغادر المكان، ولكن يدا قوية أمسكت به، وإذا بالشخص الغريب يقول له:

_لم يجبرك أحد على الدخول..أنت الآن فرد منا...خروجك يعني الانفصال عنا..

وعقاب الردة حسب الفصل الرابع من الانجيل الأسود هو أقسى أنواع العذاب والموت..انها لحظة دخول القديس جاك..لا تتحرك من مكانك!!!

فيتسمر الصبي في مكانه، وقد انتابه ذعر شديد، وكان العرق يتصبب من جبينه بغزارة وهو يشاهد شخصا ما يدخل من بوابة خلفية، وكان يجر رداءه الأسود الطويل وغطاء رأسه يتدلى فوق وجهه فلا يظهر منه شيء، ثم وفي حركة سريعة يرفع الغطاء..فتتجلى نظراته الحادة بوضوح والتي زادت الصبي بول فزعا. وبعد أن يذبح الديك الأسود فوق البناء..يملأ كأسا من دمائه ويقوم بشربها..ثم يناول الكأس للحضور فيقوم الجميع بنفس صنيعه..ويتناول الصبي الكأس بيدين مرتعشتين فيشرب الدماء بصعوبة بالغة، ولكنه مضطر لابتلاع تلك القذارة وإلا سيلقى حتفه..وكان القديس جاك يراقبهم بانتباه، وبعد أن شرب الجميع دماء الديك المذبوح يخطب فيهم قائلا:

_يا أتباع الشيطان، وبعد أن أدينا جميعا مناسك القداس الأسود فإنه لا بد أن أذكركم بتعاليم انجيلنا..الانجيل الأسود....انصرفوا إلى ملذات الدنيا من دون قيد أو شرط.. افعلوا كل ما تحرمه الأديان الأخرى..فجنتكم في هذه الدنيا والموت سيحرمكم منها..فلا جنة ولا نار بعد الموت..بل إن الشيطان يعدكم بانكم ستبعثون بعد الموت للتمتع بهذه الملذات..إن الشيطان يكافئ من باع نفسه إليه..فاتبعوا تعاليم هذا الانجيل الأسود وستأتيكم كل شهوات الدنيا طوعا أو كرها بأمر من خالق هذه الشهوات عزازيل العظيم...فقوموا إلى صلاتكم قبل أن نشرع في آداء طقوس القداس الأحمر..

وما ان أنهى القديس كلامه حتى ارتفعت أصوات الأغاني الصاخبة و تدافع الحضور فنزعوا عنهم أثوابهم السوداء الداكنة، وكانوا يرقصون إناثا وذكورا رقصات ماجنة..وشربت الخمور وكل أنواع المسكرات ..ثم يتوقف كل شيء فجأة ويرتدي

الجميع أثوابهم الداكنة مرة أخرى..ويتقدم القديس جاك الحضور ويهتف فيهم قائلا:

_يا أتباع الشيطان، سنقوم الآن بآداء طقوس القداس الأحمر..وهو القداس الأهم وفق تعاليم انجيلنا الأسود..حيث سيكون القربان بشريا هذه المرة..

فتقاطعه الحشود بالتصفير والتهليل...

ويردف قائلا:

_وقد إعتدنا أن نقدم لعازازيل العظيم صبيا ابن زنا...ولكننا أعددنا لكم هذه المرة مفاجأة...فلتنطلق مناسك القداس الأحمر...

ويتقدم من المذبح أربعة من أتباع القديس حاملين بين أيديهم شخصا مقيدا وقد غطي وجهه وجسده بالكامل.. وكان ذلك الشخص يحاول الافلات منهم و كانت صدى أناته تتصاعد من بين خيوط قطعة القماش التي تكمم فمه..

وبعد أن قيدوه فوق المذبح..يتقدم القديس جاك منه حاملا الخنجر، ويضعه طرفه الحاد على رقبة الضحية..وعندما هم القديس جاك بذبحه يفكك قيوده وينزع غطاء وجهه...فيتجلى بوضوح أنه القس العجوز بطليموس..وكان يصرخ ويقول:

_أنقذوني..لا أريد أن أموت ذبيحا..أوقفوا هذا المخبول..

وفجأة تتعالى في الأرجاء صوت صفارات الانذار..فيسقط الخنجر من يد القديس جاك..ويدلف قاعة الكنيسة أفراد من الشرطة مسلحين. فيطوقوا المكان سريعا ويتم الامساك بالقديس الذي كان منبطحا على بطنه وهو مكبل الأوثاق.. ويقدم منه رئيس الفرقة مصحوبا بصبي صغير..ويقول:

_أنا ايدموند رئيس فرقة مكافحة الاجرام..أنت رهن الاعتقال أيها القديس جاك.. بامناكك توكيل محامي...

ثم يلتفت صوب الصغير ويقول:

_شكرا على ابلاغنا يا بول..فلولاك لحدثت جريمة شنيعة في مكان طاهر كهذا.. كنيسة الرب..

بينما كان القديس جاك يقاد خارجا، وهو يصيح:

_أنا لم أفعل شيئا ..اتركوني..كل هذا كان حلما..أنا لست شيطانا...أنا مهرائيل... مهرائيل.مهرائيل...

أرض الخن

خرج خابيل كبيرالخن من عتمة كهفه، وتقدم بتؤدة، وكان يجر ذيله المرقط الطويل خلفه، وكان يمحق الأحجار المتناثرة حوله، وكان النور قد توغل بين هضاب وجهه فاحمرت عيناه، وأمسك بمخالبه الحادة فوهة الكهف، وكانت السوائل اللزجة تتساقط من جسده فيخرج لسانه الطويل ويلقي به في حركة سريعة فوق المثلثات المنتصبة على ظهره، وكان يلعق السوائل المتساقطة ويتقدم نحو الساحة العامة حيث تجمهرت حشود الخن بانتظاره..ويظل يتقدم نحوهم ضاربا بحافريه أديم الأرض فترتج لثقل وزنه..وينتصب فوق صخرة عالية تطل على الجماهير المحتشدة، ويزمجر بصوته المرعب فيتراجع الجميع إلى الخلف وتتشابك أذيلهم الضخمة فيما بينها وكانت أعينهم تحدق نحو زعيمهم في خضوع تام..

ويفتح كبير الخن ثغره فتتكشف أنيابه الحادة، ثم يخرج ويدخل لسانه الطويل بسرعة ويقول:

- خسئتم يا معشر الخن!!.لقد وصلتني أخبار هوانكم وضعفكم..فكيف تسمحون لأقوام البن بالتوسع فوق أراضيكم!!!..يا الله!!لقد ملكت الأرض منذ آلاف السنين ولم أرى ذلا كالذي أراه اليوم!!..تبا لكم !!!كيف تسمحون لأقوام أضعف منكم، يتشكلون من الطحالب ولحاء الأشجار ولا دماء تجري في عروقهم، بأن يسيطرواعلى الأرض التي حارب من أجلها أسلافكم...إني أنذركم فإما أن تسترجعوا ما كنا نملك وإلا فسأقضي عليكم جميعا...انصرفوا من أمامي أيها الملاعين!!.وليتبعني أمير الحرب إلى كهفي..

ورجع خابيل أدراجه نحو كهفه والشرر يتطاير من عينيه، وكان يشدغ بذيله الأرض كعادته أن يفعل عندما يغضب، وكان يسير خلفه أمير الحرب، وكان ضخم الجثة و مفتول العضلات مثله، وكانا يحطمان كل شيء يعترضهمابينما تراجعت حشود الخن في هدوء تام إلى أن اختفى الجميع بين غياهب الغابات..

وتوغل خابيل ومرافقه داخل الكهف المظلم، وكان لا يسمع سوى دوي حوافرهما ولا يرى سوى أعينهما المتوهجة، ووصلا إلى غرفة في أقصى الكهف تضيؤها فتحة من السقف، فألقى خابيل نفسه فوق مقعد صخري، وتمتم قائلا:

_يجب أن تجمع محاربين أشداء فإني أرى في أعين هؤلاء القوم الكثير من الجبن والضعف..

ويضرب أمير الحرب بعصاه الغليظة القاعة، ويقول:

-لك ذلك أيها الزعيم!..سوف أذيقهم أقصى أنواع التدريب وسوف نرجع لك هيبتك يا كبير الخن!!!

-آخ!!..آخ..لن يهنأ لي بال قبل أن أوسع نفوذي وأملك كل شبر في هاته الأرض!.. وإني آمرك بأن تقتل كل من يتخاذل، وسوف أعلن الحرب على قوم البن قريبا..

_أمرك طاعة أيها الزعيم!!ولكن يجب أن نعد خطة مدروسة فالبن رغم ضعفهم أكثر منا عددا، فقد استوطنوا الأرض قبلنا بملايين السنين..

-أعلم ذلك، وقد علمتني الحروب أنه لا يجب الإستهانة بالعدو، فالغرور هو أول باب للخسارة..

-انصرف إلى حال سبيلك..ولا تعد إلى هنا قبل أن تعد جيشا لا يشق له غبار!!

وتمضي الأيام، وبعد مدة من الزمن رجع أمير الحرب إلى كهف الزعيم متبوعا

بجيش عظيم..وكانت الحشود تتقدم في نخوة وقد بدت عليهم علامات القوة أكثر من ذي قبل، وكان الغبار يتطاير خلفهم فشكل غيمة سوداء كبيرة حجبت عن الشمس نورها وكان وقع حوافرهم يسمع في أقاصي الأرض..وخرج خابيل من كهفه لاستقبالهم، وخرجت من بين أنيابه ابتسامة جوفاء، ثم اقترب من قائد جيشه وربت على كتفه، ثم قال مخاطبا المقاتلين:

_إنكم اليوم أشد بأسا!وإني فخور بعمل الأمير الحرب، وإنه قد حان الوقت لنعلن الحرب على قوم البن فأنتم جاهزون للقتال، لذلك آمركم بأن تبيدوا البن عن آخرهم!!..ليعلم الجميع أننا أسياد هذه الأرض.إنها الحرب!إنها الحرب!..فليحيا قوم الخن!!فليحيا قوم الخن!!

وترتفع الصراخات وسط الصفوف المحتشدة، وكانوا يهتفون:

-عاش خابيل!!عاش خابيل..!!..الموت للبن!!..الموت للبن!!

وكانت أصداء الحرب قد تناهت إلى مسامع قوم البن..ولقد كان هؤلاء مسالمين وكانوا قد عمروا الأرض قبل الخن بملايين السنين، وكانوا لايختلفون في شكلهم كثيرا عن قوم الخن ولكنهم لا يتناسلون مثلهم، فكانوا يتكاثرون بانصهار جزء من جسدهم الذي يتشكل ويكون كائنا آخر...وكانوا يقتاتون على الطفيليات ويعيشون على ضفاف الأودية والأنهار..ولكن ظهور الخن نغص عليهم حياتهم فهجروهم من معاقلهم وكثيرا ما وقعت مصادمات بينهم فانتهى بهم المطاف مشتتين هنا وهناك فقد استولى الخن على معظم أرجاء الأرض..وكان زعيم البن يدعى بابيل، وما إن سمع بأخبار الجيش العظيم الذي أعده قوم الخن حتى اجتمع بقومه ووقف يخطب فيهم:

-يا معشر البن!!!إن الخن قد اجتمعوا، ووحدوا صفوفهم وأعدوا جيشا كبيرا ليؤذوكم..إنهم قوم قد أعمت الشهوات، التي خلقها الله فيهم على خلافنا،

بصيرتهم فجعلت منهم غريزة التكاثر وحوشا تريد السيطرة على الأرض وما فيها، ولا أخفي عليكم فإنهم أشد منا قوة..ولديهم نقطة ضعف فأجسادهم تجري بها سوائل حمراء يكفي أن نطعنها بعصى حادة، وعندما تسيل سوائلهم يقضى عليهم..فلنمزق أجسادهم برماحنا ولنقهرهم..النصر لنا!!النصر لنا!!!نحن أول من عمر هذا المكان ولنا الحق في العيش بسلام!!

في ذلك الوقت كان خابيل يقود جيشه ويتقدم نحو أرض البن، وفي غضون أيام أشرف على معقلهم... وانتبه إليهم قوم البن فدب الخوف والهلع في صفوفهم فقد ذهلوا لهذا الجيش العرمرم المتربص بهم وكان قائدهم بابيل يرفع معنوياتهم ويحثهم على التأهب للحرب..وفي غفلة منهم شن عليهم قوم الخن أولى غاراتهم، وكانت الأشجار تتساقط هنا وهناك، والصخور تتناثر تحت حوافر الجثث الضخمة، واشتبك الطرفان فارتجت الأرض تحتهم، وتعالى في الآفاق صراخهم فلزمت كل الكائنات الحية مخابئها وطغى الخوف و الموت على تلك الرقعة من الأرض.. وكانت الغلبة لجيش خابيل، فكانوا يقطعون أوصال البن بأنيابهم الحادة، فكان الواحد من جيش الخن قادرا على صرع أربع من جيش البن، واحتدم الصراع فامتزجت دماء الخن بالسوائل اللزجة التي يفرزها مقاتلوا البن بعد موتهم وخيم الألم والهلع على المكان فلا يرى إلا الجثث الضخمة الملقاة هنا وهناك ولا يسمع سوى أنات الموت و الصرخات المرعبة..ولم يستسلم بابيل وكان يأمر جنوده بالقتال رغم بوادر الهزيمة، وعندما أيقن أنهم على وشك الخضوع والاستسلام صاح فيهم:

-تراجعوا!! تراجعوا إلى الوراء نحو الضفة الأخرى من النهر فإن جثثهم الضخمة ستمنعهم من اجتيازه..

وكان البن بارعين في بناء القوارب والطوافات الخشبية، ولا عجب في ذلك، فهم خلق تشكل أساسا من لحاء الأشجار..وكانت حشود البن تمتطي الطوافات

فيما غرق كثير من جيش الخن في النهر عندما حاولوا عبوره..وكان خابيل يراقب انهيار جيشه فاستشاط غضبا وأمرهم بالتراجع إلى الخلف..وهدأت المعركة وأرخى الليل سدوله..

كانت النجوم تطل بحذر وكأنها لا تريد أن تضيء ظلمة المكان الملطخ بالجثث والدماء...وكان خابيل غارقا في التفكير عندما أقبل نحوه أمير الحرب ليتناقشا حول مسار المعركة، فقال خابيل:

-هل خسرنا عدة مقاتلين؟

-نعم أيها الزعيم، لقد ابتلعهم الغدير..

_يا للسذاجة!!كيف لهم أن يجتازوا النهر مترجلين بجثثهم الضخمة..ألم تنبههم إلى ذلك؟؟!

-بلا أيها الزعيم!ولكنهم حمقى، أخذتهم الحماسة فنسوا ما علمتهم إياه..

-يجب أن نجد خطة لاجتياز النهر قبل بزوغ الفجر!!

-وهو كذلك سيدي، لن نخسر المعركة مهما بلغت درجة دهاء كبير البن..

وكانت ساعات الليل تسير ببطئ وكأنها تدرك أن النهار القادم سيكون أكثر دموية ورعبا..وفي الهزيع الأخير من الليل دبت الحركة في صفوف مقاتلي الخن، وكانوا يشدون أطراف الحبال بحجارة ملساء كانوا قد نحتوها، وكان قوم البن بارعين في النحت على الصخور وكثيرا ما استوطنوا الكهوف الحجرية التي تعج بأدوات نحتوها بأنفسهم..وكان المقاتلون يرمون بالحبال نحو الطرف الآخر النهر فتتعلق بالأشجار فشكلوا بذلك ممرا، وكانوا يتشبثون بالحبال المشدودة لاجتياز النهر....

وما إن أرسل الفجر خيوطه الأولى حتى كان قوم الخن عن آخرهم في الطرف الآخر من النهر..بينما كان البن غارقين في النوم ضانين أنهم نجوا..وقبل أن تبزغ الشمس أمر خابيل جيشه بالهجوم..وتسلل المقاتلون بين الأشجار المتراصة وكانوا لا يحدثون ضجيجا رغم ضخامتهم، وانقضوا جميعا على قوم البن فباغتوهم، فكانوا يحطمون جماجمهم وهم نيام حتى قضوا على أغلبهم في غفلة منهم، و تشتت البقية الباقية، وحاول زعيمهم بابيل تجميعهم دون جدوى فالهجمة العاصفة للخن أتت على كل شيء، فأدركوا القلة الباقية ونكلوا بجثثهم تنكيلا، وكانوا يقطعون أوصالهم ويمحقونها بحوافرهم حتى لا تتشكل من جديد..وفشلت محاولات البن للرجوع في المعركة ولم تجد رماحهم ولا عصيهم الخشبية نفعا، ولم يبق من البن سوى زعيمهم بابيل وكان يقاتل بشراسة ليس لها نظير، وكان يمسك في يده اليمنى عصا غليظة فيهوي بها على رؤوس أعدائه، ورمحا في يده اليسرى يغرسها في قلوب ضحاياه، وكان قد صمد وقاوم حتى أنهكته الجروح العميقة فخارت قواه ووقع أرضا...وعندما هم أحد مقاتلي الخن بقتله أمره خابيل بالتوقف، وقال مخاطبا بابيل:

--ما الذي أرى؟زعيم البن يصارع وحيدا!!أظننت أنك قادر على على مقارعتنا؟!.. انظر إلى قومك، فلم يبق منهم سوى أشلاء متناثرة، هل أدركت الآن أن قوم البن أضعف من أن يتواجدوا فوق سطح الأرض؟

جاهد بابيل نفسه لينهض، ونظر إلى خابيل نظرة ازدراء، وقال:

-ومن أنت حتى تقرر من يموت ومن يعيش فوق سطح الأرض؟كفاك جبروتا أيها الظالم المتغطرس، ويكفينا شرفا أننا قاومناكم حتى آخر فرد منا!فنحن انهزمنا على حق، وياله من شرف! وأنتم انتصرتم على باطل، فبئس النصر!

-الشرف لا يصنع الأمجاد أيها الزعيم!!لقد كنت مثلك خنا طيبا آكل من

الفضلات ولا أؤذي أحدا فاحتقرني الجميع، وظنوا أن طيبتي ضعف، واستولى قوم من بني جلدتي على كل ما أملك، حتى على شرفي، أتدري ماذا فعلت بعدها أيها الشريف، لقد أيقظت لهم براكين الشر الخامدة في داخلي و انتقمت أشد الانتقام فبات الجميع يخشاني وأصبحت زعيمهم، ووضعت لي هدفا بأن أحكم الأرض ومن عليها، وتركت الطيبة للأموات مثلك فالأقوياء هم الباقون!!

وزمجر خابيل، وضرب بذيله الأرض، وصاح:

-إني أتحداك أمام الجميع، إن انتصرت فبامكانك تشكيل سلالتك من جديد، وإن انهزمت فلن يكون لكم وجود فوق سطح هذه الأرض ثانية!!

-وأنا أقبل التحدي!!!

وفسح المقاتلون المجال للزعيمين وأحاطوا بهما وكانت الأعين تترصد تحركاتهما، واندفع الاثنان فجأة وتشابكت مخالبهما الحادة وظلا يتصارعان، وكان خابيل على وشك اسقاط منافسه ولكن هذا الأخير عضه بأنيابه الغليظة ثم شده بذيله فمنعه من الحراك، وكان خابيل يحاول أن يتخلص منه حتى سقطا الاثنان أرضا وتدحرجا نحو منحدر صخري..، وكانت الأعين تتابع النزال الرهيب بشغف..

ويعلو في الفضاء دوي صرخة رهيبة اهتزت لها الجبال، فهرع الجميع للمنحدر لمشاهدة ما حدث، وأطبق الصمت على المكان..ويخرج من بين الصخور خابيل زعيم الخن وهو يجر بأنيابه جثة زعيم البن بابيل، وكان الأخير مهشم الجسد، مقطع الأوصال، لا يعرف قبله من دبره من فرط ما تلقاه من ضربات مميتة، وتقدم خابيل بنخوة نحو قومه، ووضع الجثة أمامهم، ويمزق الصمت المطبق الذي ساد المكان صوت خابيل وهو يقول منتشيا:

-هذا الذي ظن أنه يستطيع هزمي، هذا آخر فرد من البن، ولا وجود لسلالتهم

بعد اليوم، نكلوا بجثته انتقاما لأرواح اخواننا الذين قضوا، وقطعوه إربا إربا...أريد أن ألتهم جسده لأشفي غليلي. النصر لنا!!النصر لنا!!..نحن أسياد هاته الأرض!!!أنا خابيل زعيمكم و زعيم الأرض برمتها !!!

وتنتفض الحشود وتتعالى الأصوات:

-يعيش خابيل!!يعيش خابيل!!!

وقام قوم الخن إلى معالم البن وبيوتهم فأحرقوها ودمروا سفنهم وممتلكاتهم، فلا يرى حول أطراف النهرسوى سحابة دخان قاتمة ووميض النيران التي التهمت كل شيء..

وقضى خابيل وقومه كامل ردهات ذلك اليوم في الاحتفال، فقرعت الطبول ووزعت الغنائم، ونصبت الولائم، وكانوا يلتهمون جثث قتلى الخن بوحشية لم تشهد لها الأرض مثيلا..وتواصل الإحتفال حتى وقت متأخر من الليل...وبينما كان الجميع غارقين في اللهو والمجون، اشتعلت السماء بنور غمر كافة أنحاء الأرض، فاشرأبت أعناق الخن نحوه في ذهول متسائلين عما يحدث..وكانت مخلوقات غريبة تنزل من السماء، وكانت لشدة نورها تعمي الأبصار،، وكان هؤلاء القوم يطيرون بأجنحتهم من مكان لآخر، منتشرين بسرعة رهيبة لم يعهدها قوم الخن.. وكان يتقدمهم كائن ضخم مرعب لم يطأ الأرض مخلوق مثله، ويبدو أنه زعيمهم، واقتربت الكائنات المضيئة من مكان الاحتفال، وإذا بهم يحومون حول المكان في حركة دائرية فبدوا كأقراص مشتعلة انتصبت في السماء، وفجأة حطوا فوق الأرض فخمدت أضواؤهم، وتقدم زعيمهم نحو خابيل وقومه، وخاطبهم بصوته المخيف:

-أرى إن نشوة الانتصار قد أخذتكم كل مأخذ، فلا تفرحوا كثيرا فنحن قوم الجن، ونحن مخلوقات من نارونحن قادرون على مسح كل شبر من الأرض في لمح البصر، وأنا زعيمهم زازبيل، وقد بلغنا خبر طغيانكم وجبروتكم يا معشر الخن،

وقد جئنا لنطهر الأرض من دنسكم!!

وما إن أنهى كلامه حتى أطلق خابيل ضحكة ساخرة، وأخرج لسانه العملاق ولعق أطرافه، ثم حدق في المخلوق المرعب وقال:

-اسمع يا من تسمي نفسك بزعيم الجن زازبيل، لقد سمعت هذا الكلام من قبل قوم البن، فأبدتهم عن آخرهم، وإني لا أخشى قوتك التي تزعم..

وكان خابيل متيقنا بينه وبين نفسه أن تلك المخلوقات الطائرة أسرع وأشد بطشا منهم، وكان قد أنهى للتو حربه مع قوم البن وكان يعلم أن جيشه منهك ولا قبل له للدخول في حرب خاسرة..ففكر مليا ثم خاطب زازبيل:

-نحن لا نود أن ندخل في حرب معكم، ومن واجبنا أن نكرم ضيوفنا، فمرحبا بكم بيننا، ويمكنكم مشاركتنا احتفالاتنا بالنصر..

وأطلق زازبيل صرخة ارتجت لها الجبال وتوقدت عيناه وفتح جناحيه ثم حلق عاليا في السماء، وزمزجر مخاطبا خابيل:

-وهل تظن أننا قدمنا من وراء العرش لنحتفل معكم!وإني أخيركم بين ان ترضخوا لي ولقومي وتنفذون كل ما آمركم به أو أقضي عليكم جميعا!!

وهاج خابيل وماج، وأمر جيشه بالاستعداد للحرب فيبدو أنه لا مجال لإقامةالسلم مع هؤلاء الغرباء..

و سرعان ما اصطف محاربو الخن في لحظات رغم التعب البادي عليهم، وكانو على أهبة الاستعداد للقتال، وكان الجن يحلقون حولهم منتظرين أمر زازبيل بالهجوم..

وجاء الأمر..وكان خابيل يتقدم جيشه، وكان يشاهد تلك المخلوقات قادمة

نحوهم بسرعة تفوق الخيال ثم اختفت من أمام ناظريه، فالتفت وراءه فلم يجد لجنوده أي أثر..فاستغرب أشد الاستغراب وكأن الأرض قد ابتلعتهم، وقبل أن يستفيق من دهشته تلقى صفعة قوية أردته طريحا..وكان زازبيل يتقدم نحوه فخاطبه قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة:

-أظننت أنك لن تقهر أيها المتجبر!لقد قضينا عليك وعلى جيشك العظيم في ثوان معدودات!!

وجاهد خابيل نفسه ليتكلم، ثم تمتم قائلا:

-الحرب سجال، يوم بيوم ..تدعي بأنك جئت لتطهر الأرض من الظلم وإني لأرى في عينيك شرا أعظم مني بآلاف المرات، فلا تهنأ كثيرا يا زعيم الجن، سيخلق الله من يشاركك إعمار هذه الأرض..

وغضب زازبيل غضبا شديدا عند سماعه لكلام خابيل، وهوى عليه بجناحه فأرداه قتيلا، ثم التفت نحو معشر الجن المحتشدين خلفه وزمجر قائلا:

-لن أسمح لأي أحد بأن يشاركني الملك !!وسأظل أحيك المكائد لكل من تطأ قدمه هاته الأرض حتى آخر يوم في حياتي..

هيا.. فلنلعب.

_سوف تظل كذلك عاجزا طوال حياتك!!..أنت لا تصلح لشيء!!..اغرب عن وجهي..!!

كان وقع هذه الكلمات كالصاعقة على الصغير بال..نظر يمنة ويسرة ثم أشاح بوجهه عن الجزار ادوارد..._والده القاسي _قبل أن يحتمي بغرفته الصغيرة الواقعة في القبو ليمطر فراشه العتيق بوابل من الدموع ...ويظل الصغير يبكي حتى ساعات الفجر الأولى، ثم يغفو قليلا قبل أن ينصرف إلى جحيم يوم جديد بطله والد المتسلط...كانت شمس ذلك اليوم كئيبة..ترسل بأشعة باهتة متسللة بين شروخ جدران القبو، وكأنها تنذر الصغير بال بأن موعد تنظيف اسطبل الخنازير قد اقترب، فينهض الطفل مسرعا قبل أن يكتشف والده أنه لا يزال نائما، ويتناول رغيف خبز كان قد خبأه تحت وسادته منذ الأمس، ثم يدلف الاسطبل ..كان ينظف فضلات الخنازير بيديه الصغيرتين اللتان أدمتهما الحياة وهو لا يزال غرا صغيرا..ويظل كذلك غارقا في القذارة حتى منتصف النهار، موعد اللمجة الخفيفة...يتوجه نحو غرفة القبو متثاقلا من شدة التعب..ويتخذ له مكانا على الكرسي المجاور لمائدة الطعام..وكان يتأمل الصحن الذي تركه له والده...وكانت رائحة الطعام مقرفة ولكنه مضطر لإخماد جوعه..وكان يهتف في نفسه:

_هل طعام الأمهات ألذ من هذا.؟!...أظن ذلك فأطفال الجيران يأكلون بنهم.. لو كانت أمي على قيد الحياة لكنت استمتعت بالأكل كذلك...لا أتذكر أنني رأيتها قبل..ربما توفيت وأنا رضيع لا أدرك الأشياء..ولكنني مشتاق إلى طعامها...

ثم يتناول رغيف الخبز، و قبل أن يشرع في تناول الطعام يفاجأ بضربة قوية من الخلف جعلت رأسه يلتصق بالمائدة، وكان الألم المبرح قد ألم به فيحاول الصراخ ولكن أسنانه المحطمة وفمه الغارقة في الدماء تحول دون ذلك ..فيظل يتألم في صمت..ويشعر بوالده وهو يجذبه، ويلقيه على القاع وهو يصيح:

_أيها المغفل الصغير!؟؟..أتركت باب الاسطبل مفتوحا..!؟؟ها قد هربت الخنازير..من ذا الذي سيدفع لي ثمنها الآن..تبا لك أيها الملعون..إن أسوأ يوم في حياتي يوم أنجبتك..!؟؟

ويقوم الأب القاسي بعد أن انتابته ثورة غضب عارمة بجر الطفل، ثم يقوم بتقييده على رجله بالسلاسل التي كان يستخدمها لسلخ الخنازير...

ويظل الطفل المسكين بال طوال ذلك اليوم معلقا في سقف القبو ورأسه متدلية إلى أسفل بينما كانت الدماء تنزف من رأسه بغزارة..

كانت ساعات تلك الليلة تتمطط في تؤدة غير مبالية بآلام الصغير الجريح.. وكانت ظلمة الليل الحالك تحاول حجب الدماء التي غطت أرجاء القبو..غير أن ومضات النور الأولى التي أرسلتها الآفاق الممتدة كشفت فداحة ما جرى للصغير في ذلك اليوم المشؤوم من أواخر شهر فبراير...

تتالت الأيام فكبر بال وأصبح شاباً، وكبرت معه آلامه..وكانت الشيخوخة قد بدأت تنال من والده، الجزار ادوارد القاسي القلب، وكان لا يزال يعامله بوحشية...

وذات مساء دخل على والده إلى المسلخة الجاثمة بجانب اسطبل الحيوانات.. وكان يدندن بصوت خافت لحن أغنية كان يسمعها عند الجيران في احتفالات رأس السنة..فخاطبه ادوارد

ممتعضا:

_اصمت أيها اللعين..إنك تشوش علي..أليس من الأفضل لك أن تعينني على سلخ هذه الخنازير فسيارة الشحن ستصل غدا..لدينا طلبات عاجلة ..

يتجاهله بال ويواصل الدندنة، فيصرخ ادوارد عاليا:

_ماذا تريد !؟؟..تكلم...!!

فيقول بال بعد أن أطلق ضحكة ساخرة:

_أوليس اليوم آخر فيبراير يا والدي العزيز..

_وماذا يعنيني ذلك..هيا اغرب عن وجهي..إنك لا تصلح لشيء كعادتك..

ويحاول ادوارد دفع ابنه بال إلى الخارج..ولكنه بلغ من الكبر أشده فلم يعد يقوى على مقارعة ذلك الشاب..ويتجنبه بال بحركة خاطفة فيقع الجزار على الأرض الملطخة بدماء الخنازير..وكان يحاول جاهدا النهوض ولكن بال يسارع إلى تقييده بأحدى السلاسل المتدلية من السقف..فيصرخ العجوز عاليا:

_تبا لك أيها الولد العاق...ماذا تظن أنك فاعل بي؟!!فك قيدي أيها الملعون... أنسيت من أكون ..لا يغرنك تقدمي في السن..سأنال منك...

وكان بال يدندن بنفس الأغنية غير عابئ به..ثم يقول:

_اليوم هو ذكرى الحادثة الأليمة...حادثة هروب الحيوانات من الاسطبل.. أتذكرها يا أبي..لقد قتلت في بعد تلك الحادثة كل ما تبقى لي من مشاعر إنسانية ..وقد انتظرت كل هذه السنوات لألعب معك نفس اللعبة...هيا فلنلعب...!؟؟

وقبل أن يرد عليه ادوارد، يضع ابنه بال في فمه فضلات الخنازير ليمنعه من الكلام أو الصراخ..وكان مشدودا إلى السقف من رجليه، تماما كما فعل به عندما كان صغيرا...ويتركه لحال سبيله، ثم ينصرف..فيظل الجزار العجوز يتأرجح وسط

الخنازير المسلوخة ولا يستطيع حتى الصراخ أو طلب النجدة..

قضا بال ليلة هانئة على فراش مريح في بيت والده بعدما ما أمضى ما يناهز العشرين عاما في ذلك القبو الموحش...وينهض في الصباح على صوت الشاحنة القادمة لتعبئة اللحوم...يخرج بال على مهل، فيجد شابين بانتظاره خارجا، ويبادره أحدهم بالسؤال:

_صباح الخير بال..أين العجوز ادوارد؟!لقد إعتادنا أن نجده بانتظارنا..

فيقول بال متثائبا:

_آه!..أبي ادوارد..لقد رحل بالأمس...عموما لقد أعددت لكم كميةاللحم المطلوبة...

ويقوم ثلاثتهم بشحن مؤخرة العربة بأطنان اللحم المقطع، وكان بال بارعا في تجزئته حتى يخيل للرائي أنه قد نحت على اللحم أشكالا هندسية مختلفة بدقة عالية...ويتوقف أحد الشبان فجأة وهو ممسك أحد القطع بيديه، ويقول:

_إن رائحة قطعة اللحم هذه غريبة نوعا ما؟!!لقد إعتدنا على جودة سلعكم يا بال!!!

فيضحك الشاب، ويجيب بسخرية:

_لقد قمت بسلخ العجوز ادوارد ليلة أمس وقد اختلط علي اللحم... فلا أظن أنه يختلف كثيراً عن هؤلاء الخنازير...لا بد أن رائحته عفنة!!

فينفجر الشابان ضحكا، ويواصل الثلاثة عملهم حتى امتلأت الشاحنة عن آخرها....

كانت الشمس ذات مساء تتوارى بحشمة خلف الآفاق التي ارتدت ثوبا

أحمرا مائلا للصفرة جعل الجبال المحيطة بمزرعة بول تلألأ في شموخ...وكان الثلاثة شبان، مارك وانطوان و سام قد توقفوا بسيارتهم أمام تلك المزرعة الصغيرة للتمتع بلحظات الشمس الأخيرة...ويقول انطوان:

_لما لا نرتاح قليلا في هاته المزرعة؟..فأهل الأرياف كرماء وسيحسنون ضيافتنا حتما...

فأجابه صديقاه معا:

_حسنا..نعم الرأي !..فقد تعبنا من هذه السفرة الطويلة..

دلف الثلاثة إلى البيت..وكان الباب مفتوحا، ولا يوجد أحد بالداخل..وكانوا يتقدمون بحذر باحثين عن سكانه...ليجدوا مائدة طعام فخمة وقد نصب فوقها ما لذ وطاب من الأطعمة واللحوم المشوية..وكانت رائحة الطعام اللذيذة قد جعلتهم يندفعون من دون تفكير للأكل دون استئذان..يتثاقل رأس سام بعد التهامه قطعة من اللحم، وكذلك صديقاه..فيدخل ثلاثتهم في غيبوبة...وبعد مدة يفتح سام عينيه فيجد نفسه مقيدا في غرفة غريبة..فيصرخ بشدة:

_أين أنا!؟؟من الذي قيدني هكذا..!؟؟

يجاهد نفسه للوقوف، وكان يسمع ضوضاء غريبة فيفتح الباب برجله ويدلف للغرفة المجاورة..ثم يقع أرضا من هول الصدمة..لقد كان أحدهم يقطع أوصال صديقيه مارك وانطوان، وكان يقترب منه وهو يدندن بأغنية ويقول:

_إنه آخر فبراير..هيا..فلنلعب...

بدأ الناس يتناقلون أخبار اختفاءات غامضة تتم في أواخر شهر فيبراير من كل عام..ولكن لا توجد أية أدلة على هذه الاختفاءات وهو ما أثار حفيظة البعض، وبدأت مشاعر الريبة والخوف تطغى على سكان تلك البلدة و حتى البلدات

المجاورة...

وكان ألفونسو مدير مكتب العلاقات الدولية يتفحص ما يتداوله الناس على شاشة هاتفه عندما رن الجرس، ودخل عون الاستقبال، وبعد أن حياه باحترام، يخاطبه قائلا:

_إن موعد الاجتماع الدوري مع العاشرة يا سيدي في غرفة المؤتمرات..

_حقا!!لا أتذكر ذلك..عموما..شكرا لاخباري، سوف ألتحق حالا..

ويهرع لسيارته مسرعا فقد كادت مشاغله الكثيرة أن تنسيه ذلك الاجتماع المهم...وكان عادة ما يتخذ الطريق الجبلي فهدوء الطبيعة يزرع في نفسه دوما الراحة والطمأنينة..وكانت الجبال تتسابق أمامه خلف نافذة السيارة مخضرة ..ترقعها بعض الحجارة البنية تارة والبيضاء تارة أخرى فيظن أنها عيون طرزتها الطبيعة على ثوبها المزركش لتقيها من الحسد...جعلت النسمات العليلة رأسه يتثاقل، فيركن السيارة وينظر إلى الساعة، و يقول:

_لا مانع في أن أغفو قليلا فما يزال لدي ساعة على موعد الاجتماع...

اتكأ على كرسي السيارة ثم غفا....

وبعد مدة يفتح عينيه بصعوبة..ينظر إلى ما حوله، فلا يصدق ما رأى....لقد كان مشدودا إلى حائط صخري، معلقا في الفضاء..فيحاول أن يحرك يديه ورجليه ولكنه لا يستطيع، فقد كان مكبل الأوثاق بسلاسل من الحديد ملتصقة بالجدار... ينظر إلى أسفله..فيبدو له وكأنه مقيد في جدار صخري لبئر عميقة..وكان المكان كلما ازداد عمقا غمرته الظلمة الحالكة...فيصرخ بأعلى صوته:...

_أين أنا؟!!..ماذا أفعل هنا؟!!!أخرجوني .. أرجوكم؟؟!!!!

وكان لا يسمع سوى صدى صوته يتردد في أرجاء البئر فيضفي على المكان وحشة ما بعدها وحشة....وبينما كان غارقا في آلامه يفكر في سبيل للخلاص من السجن الذي وجد نفسه فيه..ينفتح عقد القيود الحديدية من تلقاء نفسه، فيهوي المسكين في قاع البئر...وبعد أن نهض بصعوبة بالغة، يتحسس المكان باكيا.. ولكن الظلمة حالت دون أن يفهم ما يجري له...وظل يتنقل في سواد الأعماق متحسسا الجدار والأشياء المحيطة به...إلى أن توارت الظلمة فجأة، وأضاءت الفوانيس المكان...

يرى شابا و فتاة ملقيان في قعر البئر، فيتقدم نحوهما..ثم يتحسس نبض قلبيهما، ويقول:

_إنهما على قيد الحياة.!!!...هاي..استفيقا من أنتما؟؟..استفيقا..هل أنتما بخير؟؟؟

ويفتح الشاب عينيه، وينهض مذعورا، وبعد أن يمعن النظر في ألفونسو يقول:

_هل أنت من أتى بي إلى هنا ؟..ماذا تريد مني..هيا أجبني!!

ويهم بضربه بقبضته القوية، ولكنه ألفونسو يتراجع للخلف قائلا:

_رويدك أيها الغريب..أنا سجين مثلك، ولا أعلم ماذا أفعل هنا، ومن الذي أتي بي إلى هنا..

_ماذا نفعل هنا بحق السماء؟!!ومن تكون هذه الفتاة؟؟..هيا استيقظي...هل تعلمين شيئا عما يحصل لنا..استيقظي..

وتنهض الفتاة مذعورة، وهي تصيح:

_أنقذوني..أنقذوني...من أنتم.. !؟؟

فيتمتم ألفونسو:

_يبدو أنها لا تعلم شيئا عما يجري مثلنا تماما...ما اسمك أيها الشاب؟!ومن تكون؟وهل تعرفني من قبل؟!!

فيقول الشاب السجين:

_اسمي مارك..أنا طبيب، ولا أظنني رأيتك من قبل، ولا هذه الفتاة..وأنت من تكون؟

_ألفونسو..خبير علاقات دولية سابقا..وسجين في بئر لعين حاليا..

فتقول الفتاة باكية:

_أنا آنا..ولا أعرفكما..أنا متأكدة من ذلك..أنا مهندسة معمارية..ولكن ما الهدف من جمعنا نحن الثلاثة معا في هذه البئر...؟!!!

ومرت الساعات ثقيلة، و ثلاثتهم لا يعلمون ماذا يصنع بهم، وقد اتخذ كل واحد منهم ركنا من قعر البئر..يفكر كل واحد في مصيره المجهول..وكانوا يتبادلون نظرات الحيرة والخوف تارة والشك والريبة تارة أخرى...يقف مارك، ويشرع في جذب الصخور التي بدت له غير ثابتة عندما تأمل فيها ملية..وكانا الاثنان الآخران يراقبانه في صمت...ويتوقف فجأة وهو ينظر للجدار..لقد وجد شاشة تلفاز خلف الحجارة، فيقول متعجبا:

_ما هذه الشاشة؟!..هل تعمل..

ويلتحق به ألفونسو وآنا على عجل، وكانت أعينهم مثبتة بإتجاه الشاشة، ويضغط مارك على زر التشغيل...فتظهر صورة أحدهم يرتدي قناع خنزير، وكان ممسكا بيده سكينا حادة، يمشي جيئة وذهابا في غرفة ملطخة بالدماء و كان

المكان أشبه بمسلخة لذبح الحيوانات، ويقول المقنع بصوت متقطع:

_مرحبا بكم.أنا بال الجزار...لقد جئت بكم إلى هذا المكان لأن هنالك صفة تجمع بين ثلاثتكم..صارحوا أنفسكم...إنه آخر فبراير..سوف ألعب معكم لعبة.. خلف هذه الشاشة هنالك باب حديدي مغلق هو السبيل الوحيد للنجاة..المفتاح موجود في مكان ما في قعر البئر...فقط صارحوا أنفسكم وابحثوا في قلوبكم..لديكم ساعة فقط قبل أن تفتح صهاريج المياه فتملأ البئر ..مباشرة بعد اكمال الفيديو سيبدأ العد التنازلي..انظر إلى ساعتك اليدوية يا ألفنسو...هيا...فلنلعب...

وانطفأت الشاشة فجأة، واشتعلت الساعة اليدوية وبدأ العد، والمساجين الثلاثة لا يصدقون ما سمعوا...وغمر الصمت الرهيب المكان..وكان ألفونسو ينظر إلى الساعة التي تتسارع عقاربها وتارة وإلى وجه زميليه المتجهمين تارة أخرى.. وكان يهتف في نفسه:

_صفة..أي صفة تجمع بينيا..لا بد أن كل منا ارتكب فعلا شنيعا..وقد جاء بنا هنا ليعاقبنا...ولكننا شخصيات مرموقة في المجتمع...هل نستحق كل هذا؟؟!!..آه.. نعم ..أتراه على علم بالنفايات النووية التي قمنا بادخالها للبلاد؟؟!!ولكن العملية تمت في كنف السرية!؟؟ وقد أضفنا من ورائها أموالا طائلة لخزينة الدولة..أبدا لا أظن أن هذا الجزار الحقير على علم بذلك...

بينما آنا فقد اتخذت ركنا حذو الجدار، وكانت تحدق في الشاشة، وتقول بينها وبين نفسها:

_لا بد أن كل منا قد أقدم على فعل شنيع لينال هذا العقاب...أتراه على علم بالبنايات الآيلة للسقوط التي كنت أوقع على كونها سليمة..ولكنني مضطرة لذلك..نحن نوفر المال لخزينة الولاية..هل هذا سبب وجودي هنا؟؟لا أظن ذلك...

أما مارك فكان يمشط المكان مهموما، وكان يتمتم بصوت خافت:

_ولكنهم ميتون لا محالة...أنا لم أنزع قلب أو كلية أي مريض له أمل ولو طفيف بالشفاء..هل اقترفت جرما؟!!!...ألم أساهم في انقاذ مريض آخر..هل علم هذا المسمى الجزار بال بذلك وأراد أن يعاقبني....من أين له ذلك؟!!!!

وظل ثلاثتهم يفكرون في صمت...وكانت أعينهم مشرئبة نحو سقف البئر تتبع مسالك الضوء التي رسمتها الشمس على الجدار ..ولكن ظلمة الأعماق تطبق على كل شيء فتلتهم ضوء الفوانيس الخافت التي بدأ نورها يضمحل...وينظر ألفونسو إلى ساعته ويصيح مذعورا:

_لقد مرت ربع ساعة!!!!!

ويشرع ثلاثتهم في البحث عن مفتاح النجاة على عجل، وكانوا يمشطون أرجاء القاع، ويبحثون بين الصخور وفي كل مكان، ولكن جهودهم باءت هباء...وكانت الدقائق تمر سريعة لتتسارع معها أنفاسهم المتصاعدة...وكان الوقت يوشك أن ينفذ وهم لم يجدوا المفتاح بعد...وينهار ألفونسو على الأرض، ويضع رأسه بين ركبتيه بينما أصابت مارك نوبة هستيرية فكان يقلع حجارة الجدارة بكل قوة.. وينبش في الأرض وهو يصيح..

و كانت دموع آنا تتهاطل بغزارة وجسدها يرجف من شدة الخوف من الموت المحدق بهم....ويقف ألفونسو، ويقول:

_ألم يقل ذلك الجزار المجنون"فتشوا في قلوبكم"...

فلم يعره الآخران أي اهتمام، ثم يردف قائلا:

_هذا ليس تعبيرا مجازيا..انه يريد اخبارنا أن المفتاح تم زرعه في قلب أحدنا..

فذهل مارك وآنا بعد سماعهما كلام ألفونسو..ويقول الطبيب مارك:

_ان كان ذلك فلا بد أن هنالك أثر لعملية جراحية على جسد أحدنا..

وينزع مارك قميصه، فيصاب بالذهول عندما يجد أثر عملية أجريت عليه عندما كان في غيبوبة، فيتمتم:

_من الذي فعل هذا بي؟!!!

وتقول آنا بصوت خافت:

_وهل يريد منا هذا الملعون أن ننتزع المفتاح من قلبك؟!!

_اصمتي؟!!إذا اقترب مني أحد سأهشم رأسه، ويتراجع للخلف ممسكا بيده حجرا حادا..

وكان ألفونسو ينظر إلى عقارب الساعة..وينتفض فجأة في غفلة من الجميع ويندفع نحو مارك ويهوي عليه بقطعة من الحديد كان قد عثر عليها في قعر البئر.. وحاول الأخير يائسا الدفاع عن نفسه..واشتبك الطرفان وعمت الفوضى والصراخ والعويل المكان..و حاولت آنا أن تثني ألفونسو عن صنيعة، ولكن غريزة البقاء أعمت بصيرته، ٩ فهوى عليها هي الأخرى بقطعة الحديد فأرداها قتيلة...ورنت الساعة اليدوية لتعلن عن انتهاء الوقت..فيسرع ألفونسو نحو مارك الملقى على الأرض فيفتح قلبه غير عابئ بأناته ولا لسيل الدماء المرعب الذي غطى جسده... ثم يقف وهو ممسك بقلب مارك بين يديه، ويقول:

_فعلا لقد صدقت تخميناتي..هاهو المفتاح هنا

وفي ذلك الوقت فتحت صهاريج المياه التي بدأت تغمر المكان..فصاح ألفونسو عاليا:



_أرجوك أوقف ذلك الآن لقد عثرت على المفتاح..أرجوك أوقف ذلك يا بال...

وكانت المياه قد بدأت ترتفع نحو السطح..وألفونسو يحاول الاقتراب من الباب، وهو لا يزال يصيح:

_بال....بال...بال......

يفتح بال عينيه وكان يجد صعوبة في الرؤية، ويقول:

_من يناديني..؟!!

فيسمع صوتا أنثويا جميلا يقول له:

_أنا أمك يا بال..هيا انهض... يبدو أنك قد حلمت حلما مزعجا فقد كنت تبكي وتصيح أثناء نومك بعد أن تركت جهاز التلفاز مفتوحا..أخبرتك مرارا وتكرارا بأن لا تشاهد أشياء مخيفة قبل النوم..هيا أنهض ...أبوك ادوارد بانتظارك..

ويدخل الوالد مبتسما وهو يقول:

_صغيري..انه آخر فيبراير..عيد ميلادك..لقد أحضرت لك لعبا غاية في الروعة... هيا...فلنلعب....

لا تخف...نحن...أسرة

_ماما..ماما..هل أتينا لهذا المكان من قبل؟!!

يبتسم الوالدان، ثم تلتفت الأم لصغيرها، وتقول:

_لا يا حبيبي لم نأت قط لهذه المدينة من قبل..انها رحلتها الأولى..

ويقاطعها الأب قائلا:

_وهل تعتقد أنك أتيت إلى هنا سابقا يا بني؟

_نعم يا أبي.

.لقد رأيت هذا المكان، ولكن لا أعلم أين..

وينفجر الوالدان ضحكا، وتقول الأم:

_انتبه أثناء قيادة السيارة يا عزيزي..يبدو أن ابننا آدم لديه خيال واسع..

_فعلا..فعلا.خياله شاسع جدا..أوشكنا على الوصول للنزل الذي سنقضي فيه الاجازة..

تتوقف السيارة، ويدلف الوالدان صحبة ابنهما آدم صاحب الثمان سنوات، وكان الأخير يتأمل المكان الجميل، ويقول:

_نعم انه نفس المكان يا ماما، يوجد بداخله مسبح على شكل زهرة عملاقة..

فتبتسم الأم وتمسك بيد صغيرها، ويصعد ثلاثتهم للغرفة، فما أحوجهم للراحة بعد سفر يوم كامل..

وبعد ليلة هادئة، أشرقت شمس نهار جديد على ذلك النزل الجميل المطل على البحر، وتطايرت أشعتها في كل مكان، فامتزجت مع عبق الصباح لتضع فوق زرقة البحر اكليلا مشعا منتصبا أمام البناء الشاهق ، ويعكس ضياءه على الواجهات البلورية للنزل..فترتدي تلك الرقعة من الأرض حلة زاهية الألوان ..وتخترق الأشعة زجاج الغرفة ٧١٦..فيقوم الطفل آدم متثاقلا وهو يفرك عينيه الصغيرتين، ويغسل أطرافه على عجل ليلتحق بأبويه في قاعة الإفطار.. وكانت الأم في انتظار صغيرها، وعندما أقبل نحوها، قبلته وقالت:

_صباح الخير يا صغيري، أسرع بتناول فطورك سنقوم بجولة في النزل..

وبعد الفطور، اصطحب الوالدان صغيرهما آدم بجولة في ذلك النزل الضخم، وكان الأب يتأمل الزخرفات والأواني المنحوتة ببراعة، ويقف مشدوها أمامها، بينما إلتحق الصغير بزمرة من أطفال في مثل سنه ..وكان النزل مليئا عن آخره فيقرر الزوجان الابتعاد عن الزحام و التنعم بدفء الشمس قرب المسبح بعد أن أوصيا طفلهما بأن لا يبتعد كثيرا ..وألقى الأب بجسده المتهالك فوق الكرسي الأشبه بالسرير..كيف لا وقد أرهقته سنة كاملة من العمل المتواصل ..وجلست بجانبه زوجته وهي تحدق في حشود المصطافين المنتشرين هنا وهناك حول المسبح و على ضفاف الشاطئ.. وفجأة ..تضع نظارتها جانبا، وتقف من مكانها..وتقول مخاطبة زوجها:

_ولكن ..كيف عرف ذلك؟

_عما تتحدثين يا عزيزتي؟

_لقد أخبرني آدم أن المسبح في هذا النزل على شكل زهرة..!

وينهض الأب وهو يحدق ملياً في المسبح، ويقول:

_ومتى قال لك ذلك؟

_البارحة ..قبل أن ندخل النزل..

_ماذا؟..ألم يقل لنا كذلك أنه يعرف هذا المكان..انه لشيء يبعث على الحيرة، هل أن الأمر محض صدفة ؟..لا بد أنه شاهد مسبحا مشابها على شاشة التلفاز..

_نعم..نعم..ربما..

ومضت الاجازة بسرعة، فقفلت تلك العائلة عائدة الى منزلها، وكانت معاملة الوالدين لابنهما آدم قد بدأت تتغير، فأصبحا يعيران كلامه وملاحظاته اهتماما أكثر، فقد ترسخت في ذهنهما أن ما يخبرهما به بين الفينة والأخرى ليست مجرد تهيؤات لطفل صغير..فهو يرى أشياء لم تقع..وكان ذلك الأمر يبعث على القلق، ويقول الأب مخاطبا زوجته ذات مساء:

_ما رأيك لو نستفسر الأمر لدى طبيب نفساني؟..

_أعتقد أنه الحل الأفضل ..واني أخشى أن صغيري قد أصابه مس من الجن..

_..لا أميل إلى هذه التصورات التي تجنح للخرافة..أعتقد بأن الطبيب النفسي قادر على فهم هذه الظاهرة..

_نعم الرأي..علينا أن نتصل في أقرب وقت بالأخصائي النفساني..

ومن الغد، توجه الزوجان نحو أقرب طبيب، وكانت الزوجة تتصبب عرقا من فرط الخوف على ابنها وهي تمسك آدم بيدين مرتعشتين، بينما تسلح الأب برباطة الجأش، وبعد أن دلف العيادة، قال مخاطبا الطبيب:

_دكتور..أود استشارتك في أمر يخص صغيري آدم..

ويبتسم الطبيب، وكان كهلا خمسينيا غزا الشيب رأسه، وكانت عيناه الحادتان



تتقدان فطنة وذكاء..وكان يضع مجلده الضخم فوق رفوف مكتبته المدججة بالمراجع فتبرز من بيت طيات ثيابه بعض التجاعيد حفرتها سنوات طويلة من البحث و التمحيص ...يتقدم من الصغير وأمه بعد أن رفع نظارته، و يربت على كتف الصغير ويقول:

_لا أظن بأن هذا الطفل الجميل بحاجة للعلاج، فيبدو لي انه على مرام..وأظن أنه من الأفضل أن يذهب رفقة أمه لقاعة للانتظار..أظن أن برامج الأطفال قد بدأت للتو.._يخاطب الصغير_ستستمتع بمشاهدتها على التلفاز رفقة أمك..بينما أدردش قليلا مع والدك..اتفقنا؟

يومئ آدم برأسه، ثم يخرج مع أمه بينما يظل الأب بجانب الطبيب، وبعد أن أغلق باب المكتب يقول الدكتور:

_لا يجب أن نتكلم أمامه، أو حتى نشعره بأنه بحاجة إلى العلاج!

_عفوا دكتور..فهمت متأخرا عذرا...ولكنني قلق بشأنه فهو يرى أشياء يخيل له أنه رآها أو عايشها من قبل، وكثيرا ما يصدق في وصفه لأماكن وأحداث لم يعشها من قبل..فأرجو أن تريح قلبي وقلب أمه وتفسر لنا ذلك..

يصمت الطبيب برهة، ثم يهرع إلى مجلداته المصطفة خلفه، ويختار أحدها، وكان يقلب الصفحات، ويقول:

_وهل تكررت هذه الحالة عدة مرات؟

_نعم..نعم أيها الطبيب..فهو وصف لنا ذات مرة تصميم مسبح لنزل زرناه لأول مرة..

ويضع الطبيب نظارته، ثم يغلق الكتاب ويقول:

_أحسنت صنعا بالقدوم الي، فليس ابنك الحالة الوحيدة التي اعترضتنا، وان علم النفس يفسر ذلك بأن هناك نوع من البشر يعيش كامل ردهات حياته وهو جنين في بطن أمه، وتكون بذلك حياته كلها تكرارا لحياة عاشها بالفعل ولكن في مخيلته..

وتغيرت ملامح الأب عندما سمع هذا الكلام، فطمأنه الطبيب قائلا:

_ان الأمر لا يدعو للقلق لأن هذا التكرار لا يلازم الإنسان طوال حياته فينغصها، بل انه يأتي على شكل ومضات في مخيلته، بل ان المدة الزمنية بين الومضة والأخرى قد تستغرق عدة سنوات..

_وما علاج ذلك يا دكتور؟، فقد يصاب آدم بالاكتئاب جراء ذلك..

_لا ..لا..سيتعود على ذلك وأرجو أن تعينه على التعود عليها وبأن لا يعيرها اهتماما كبيرا ..وان شاء الله عندما يكبر سنفسر له أنها ظاهرة طبية طبيعة لا تشكل أي خطر..ومكتبي مفتوح أمامك في أي وقت لاتابع حالته..وأظن أن الأمر الآن لا يتطلب حصصا للعلاج النفسي..

وبعد أن ودع الدكتور، يلتحق الأب بزوجته وابنه في قاعة الانتظار، فترمقه الأم بنظرة تحمل الكثير من الريبة، بينما كان الصغير مشدودا للتلفاز فلم يشعر بوجود والده، فيناديه الأب:

_آدم..آدم..

وينتفض الطفل مذعورا، فيقهقه الأب عاليا، ويقول:

_لا تخف..لا تخف.. نحن..أسرة..

وبعد أن طمأن زوجته، خرج الوالدان من عيادة الطبيب رفقة صغيرهما وقد



بدت عليهما علامات الإرتياح..

مرت سنوات، وكبر آدم وأصبح شاباً ناضجا، وكان قد نسي أمر تلك التهيؤات وكان يعيش حياته بصفة عادية، وخرج ذات مرة للجبال في مخيم كشفي..

كان الجو ربيعيا رائعا، وكانت الخضرة تزاحم بقية الألوان لتغزو الحقول والسهول الممتدة، وكانت الطيور تمشط الأجواء بين قطع الغيوم، تبحث عن أوكار لها ..وكانت الواجهات الصخرية المنتصبة تتلقف صدى معزوفات حالمة لا يعلم مصدرها..ربما أطلقتها أسراب الطيور فحملتها النسمات العليلة وسلكت بها المروج المخضرة حتى اخترقت فجوات الصخور فأضحت تلك العزفات أروع سمفونية عزفتها الطبيعة..وسط ذلك الشدو الساحر يقف كهف صخري مظلم يخيل للرائي أنه يلامس الغيوم من فرط ضخامته، وكان آدم قد سحر بمنظره فقرر اكتشافه والتوغل فيه صحبة ثلاث من أصدقائه..

وكان قد جلب كل معدات التسلق من حبال و ومصابيح ومفرقعات للانارة فقد كان مهووسا باستكشاف الكهوف..ويخاطب آدم مرافقيه:

_أظن أن هذا الكهف يفتح على حفرة عميقة على عكس الكهوف التي زرناها من قبل، فكلما نتقدم تتجلى هذه الحفرة..

ويقرر الثلاثة النزول إلى عمق الكهف، وكانوا قد أوثقوا حبالهم في رؤوس الحجارة الكلسية الحادة..وكانوا ينزلون بحذر متشبثين بالصخور، وكلما توغلوا أكثر بدأ النور الآتي من العالم الخارجي يختفي رويدا رويدا، وواصلوا هبوطهم المميت حتى ابتلعتهم ظلمة الكهف..وأطبق الصمت على المكان فلا يسمع سوى أصوات الحبال التي كانت تدغدغ الصخور الملساء...ويقطع ذالك الصمت صوت صراخ مرعب ارتعدت له فرائص آدم فيتمسك بالحبل وهو يرتعد من شدة الخوف.. وكان صدى الصراخ يبتعد في الأعماق حتى اختفى..وبعد أن عاد للشاب رشده،

فتح المصباح لانارة المكان..وكم كانت المفاجأة ..لم يجد لمرافقيه أي أثر سوى حبال متدلية تتأرجح بين الصخور كالمشانق..فكان آدم بين خيارين اما أن يعود أدراجه أو أن يواصل مغامرته القاتلة ويهلك مثل مرافقيه..ووقف مدة يجول بعينيه في ظلام الكهف، وكان يترصد قطع النور المتسللة من بين الشروخ فتلبس الصخور المنتصبة حلة متلألئة فملأت النجوم المضيئة سماء الكهف المرعب، وكان هناك قمر أكثر لمعانا من الآخرين، يخفي وراءه شبح انسان يتدلى مصباحه من تحت خصره ، وكان ينزل ويتوغل للأعماق بعزيمة أقوى من الموت..

وبعد أن توغل لأكثر من ثلاثين ميلا تتراءى له أرض مسطحة، فيطلق الشاب المنهك ابتسامة شحيحة..وتتوقد حماسته رغم التعب البادي على محياه، وإذا به ينط من صخرة إلى صخرة في حركة رشيقة كالغزال..حتى وطئت قدمه تلك الأرض الغريبة...وكان المغامر الشاب يتقدم بثبات وهو يحدق في ذلك العالم الغريب.. لكن قدميه أثقلها التعب وخذله جسده المتهالك فألقى به على القاع ليغفو قليلا لعله يسترد أنفاسه...وظل يتقلب ذات اليمين وذات الشمال وكان يتراءى له بصيص نور في غياهب الظلم فيفتح عينيه ببطئ..ويرى أمامه أشياء غريبة محيطة به، فيفرك عينيه ظنا منه أنه كابوس..وينتفض من مكانه..فإذا به محاط بكائنات رمادية تثير الفزع، وكانت رؤوسها أشبه بالجراد، و أعينها سوداء واسعة..وكانوا قصار القامة، عراة، لا يتجاوز طول الواحد القدم...ويتراجع آدم إلى الخلف وقلبه يكاد يتوقف على النبض من شدة الخوف..وكانت تلك الكائنات تتقدم نحوه، فيصيح قائلا:

_ما أنتم!! ابتعدوا عني...هل أنا في حلم أم في علم...؟؟

ويتقدم أحد الكائنات الغريبة نحوه، فيشعر آدم وكأن صوتا ما يخاطبه في داخله ويقول ذاك الصوت:

_نحن الرماديون سكان جوف الأرض..نحن لا نتكلم ولكن نتواصل عن طريق التخاطر الذهني، ولنا القدرة على فهم أي لغة من لغاتكم أيها البشر!!!

_من أين يأتي هذا الصوت!!هل أنت من خاطبتني الآن..ماذا تريدوني مني..؟

_نحن لا نتكاثر لذلك نحتاج لعينات بشرية مثلك للاستنساخ كي لا تنقرض سلالتنا..سنصطحبك رفقة العينتين الأخرتين اللتين كانتا معك..

وما إن سمع آدم هذا الكلام حتى أظلمت الدنيا أمامه وارتعدت فرائصه فاستجمع ما تبقى له من شجاعة وتراجع راكضا، وكان يحاول أن يتشبث بالحبال، ويشعر فجأة بصدمة قوية لم يعرف مصدرها، فيمزق صدى صراخه المرعب أرجاء المكان قبل أن يغمى عليه..كان غير مدرك لأي شيء حوله..ولا يكاد يرى شيئا ما عدى صور ضبابية لتلك الكائنات الغريبة..

ويشعر بأن أحدا ما يجره على الصخور الحادة التي كانت تقطع جسده، فيحاول أن يصرخ ويطلب النجدة ولكن لسانه تثاقل ولم يعد باستطاعته الكلام... فيظل يتألم وينزف في صمت...وعندما يشتد به الألم المبرح يستفيق من غيبوبته تدريجيا..وكان يرى تلك الكائنات الرمادية وهي تضعه على صخرة مسطحة أشبه بمائدة الطعام..وكانوا يثبتونه إلى تلك الطاولة الصخرية بمسامير غرسوها في كف يده وعلى ساقيه...فتطايرت دماؤه في كل مكان..وتطاير معها فؤاده صرخاتا مدوية اهتزت لها أرجاء الكهف...وكان يصرخ ويصرخ، وتلك الكائنات غير عابئة به..ويسمع أحدهم يقول:

_نحن بحاجة إلى عينة أنثوية لنزرع فيها جنينا رماديا..

ويقول آخر:

_إذن..ماذاسنفعل بهذه العينة.

_فلنتظر قرار الزعيم...عموما لن نطلق سراحها ستفيدنا في تجارب الاستنساخ..

وانفض الجميع من حوله، وتركوه ممددا فوق الطاولة ينزف من يديه و رجليه بغزارة...كان آدم يحاول أن يفك نفسه من الوثاق...ولكن الألم يشتد به فتخور قواه فهو يعلم أن محاولاته يائسة...وبينما كان غارقا في آلامه ودمائه..يقوم الرماديون باحضار مرافقيه اللذان كانا معه قبل سقوطهما في جوف الكهف... وكانا مشدودين مثله فوق مائدة صخرية من دون حراك، أعينهما شاخصة إلى الفضاء ويبدو أنهما فارقا الحياة..وكان أحد الرماديون يقطع أوصالهما ويضعها في إناء غريب يتطاير منه البخار..ثم يقوم آخر بوضع القطع في صناديق يتم جرها بواسطة عربات غريبة...كان آدم يتأمل ذلك المشهد المروع، وهو يعلم أنه سيفعل به نفس الشيء، فيتوقف الدم في عروقه من فرط الجزع والخوف..وتنهال دموعه، ويقول:

_رباه لا أريد أن أموت هذه الميتة الشنيعة...

ويقترب منه أحدهم وهو يمسك بفأس حادة، وبضربة واحدة يقطع اصبعه، فيصرخ المسكين:

_اصبعي ...اصبعي...ماذا فعلت به!؟؟..اللعنة عليك!..اللعنة عليكم جميعا!!!

ويأخذ الرمادي اصبع آدم، ويقول لصاحبه:

_قارن فصيلة دمائه مع فصيلة دماء العينتين الأخرتين...

وكان الرماديون الآخرون منهمكين في تجاربهم الفظيعة...وكانوا ينتزعون قلبي الشابين..فيوضع الأول في إناء بلوري مربع الشكل ..وكان القلب لا يزال ينبض... بينما يؤخذ الثاني مع بقية القطع في العربات...وكانت قساوة المشهد على آدم شديدة حتى أنه أغمض عينيه وأشاح بوجهه جانبا، لم يعد يقوى حتى على

الصراخ، واستسلم لقدره المحتوم...وبينما كان غارقا في تفكيره...يشعر بمخالب تتحسس وجهه، ويرى أمامه كائنا آخر أشد غرابة من الرماديين...وكان يشبههم في شكله...غير أنه أكثر منهم طولا، ولم يكن رمادي اللون ...بل كان جلده كجلد الأفاعي...يقترب منه ويشعر أنه يخاطبه قائلا:

_إن فصيلة دمك نادرة أيها البشري.. كنا نبحث عنها منذ زمن..ستمكننا أخيرا من استنساخ الرماديين...لذلك يجب أن نتركك على قيد الحياة إلى أن نبدأ في الاستنساخ...

فيصرخ آدم باكيا:

_اتركوني وشأني ...أنت لست مثلهم، ولعلك ترحمني...إن الموت أهون علي من أبقى على هاته الحالة وقتا أكثر...

_إني أنتمي لقوم الزواحف، ولقد أتينا من الفضاء الخارجي وقمنا بغزو أرض الرماديين، ونحن الآن أسيادهم فنحن كائنات أكثر تطورا منهم، لذلك أردنا أن نقوم باستنساخ الرماديين قبل أن يندثروا عن طريق عينات بشرية ليصبحوا أكثر قوة ..وذلك لنعدهم للحرب القادمة ضد سكان الأرض العليا...أعرفت الآن من أكون...ستظل هنا أيها الآدمي حتى تأذن لنا السلطات في الفضاء الخارجي ببدء التجربة..

ثم يغرس في جسده إبرة يفقد على إثرها وعيه مرة أخرى.....

ويفتح آدم عينيه بصعوبة فيجد الطبيب أمامه وهو يرش عليه بعض المياه ويقول:

_أنت بخير أيها الطفل الجميل، انه مجرد اغماء بسيط بسبب تلك التهيؤات اللعينة، سوف نقوم من هنا فصاعدا بحصص للعلاج حتى نقضي عليها..

وكان والده بجانبه، وكان يبتسم ويقول:

_لا تخف...لا تخف.. نحن..أسرة..

سر القبو المظلم

...انطفأ الفانوس، وغرق المنزل في الظلام...تقدمت لينا منه لتداعبه قليلا، كما كانت تفعل مع دميتها الصغيرة، وسمعت صوتا جميلا:

_اتركيه يا حبيبتي..يا حبيبتي اتركيه..سوف يؤذيك..حبيبتي لينا اتركيه..

وابتسمت لينا، وتركت الفانوس، وكانت تتبع مصدر الصوت في الظلام، وتتحسس المكان...وكانت تمشي بخطواتها الصغيرة، وكانت تقع وتنهظ، وكان الصوت يتباعد، فلم تعد لينا تسمع إلا همسات آتية من بعيد..

_لينا تعالي، الفانوس قد يؤذيك.. لكنني لن أؤذيك..لينا جميلتي تعالي...

وتصل الصغيرة إلى الباب الخارجي، ثم تقف على أمشاط أصابعها كما اعتادت أن تفعل لتسرق الكعك من الثلاجة، وتفتح الباب...وكانت الطفلة تسير ببطئ وسط الظلام، واجتازت السور الخارجي لحديقة المنزل، وكانت النداءات الخافتة تتردد في الفضاء:

_ليبينا..لينا..تعالي..تعالي..

وبدأت الظلمة تنقشع، وأرسلت الشمس صفرتها الكئيبة في الآفاق، وكانت تمسح بخيوط أشعتها بقع الظلام المتناثرةفي كل مكان، حتى حول سيارات الشرطة المحيطة بمنزل لينا، ويمتزج ضوء الشمس بالألوان الزاهية التي تعتلي تلك السيارات، فيغطي البريق جو الكآبة المحيط بالمنزل...

وينزل المحقق رياض من أحد السيارات، وكان يمتص آخر ما تبقى من سيجارته، وكان يجيل ببصره هنا وهناك حتى شاهد والدي الفتاة الصغيرة فتقدم نحوهما.. وكانت الأم تذرف دموعا حارقة، وكان الأب يواسيها ويربت على كتفها محاولاأن يتسلح بالشجاعة...فيبادره رياض بالسؤال:

_عذرا..وإني لشديد الأسف لما حدث، وأرجو أن نهتدي إليها قبل أن يحل بها أي مكروه لا قدر الله، وأرجو أن تعيناني على ذلك، ويجب عليكما تذكر أدق التفاصيل..

ويومئ الوالد برأسه، بينما كانت الأم تكفكف دموعها غير عابئة بما يقول، فيستدير وكأنه فهم أن الوقت غير مناسب لاستجواب والدين ملتاعين باختفاء ابنتهما الوحيدة..

وكان رياض يقلب دمية الصغيرة في يده، ويمشط غرفتها، ثم يعض على شفتيه، ويهتف في نفسه:

-إنها ثالث حادثة اختفاء لطفل صغير خلال شهر!!!..ما الذي يجري في هذه المدينة؟؟..هل هناك مجرم وحيد وراء هذه الحوادث؟؟

ويسمع فجأة صوتا خافتا يقول:

_لينا...لينا..ذهبت لينا..

فينظر خلفه، ويتفحص المكان، وكان يجري هنا وهناك في أرجاء المنزل، ثم يقول:

_هل أنا أحلم؟!!..لقد خيل لي أنني سمعت صوتا ما، ولكن لا يوجد أحد بالداخل، وسيارات الشرطة تحاصر المكان، ولاأحد يستطيع الدخول..

وكانت الدمية لا تزال في يده، فيحدق بها مليا..لقد كانت عيناها جاحظتين شديدة الاحمرار، وقد استغرب من شكلهما المرعب، وكان قد لاحظ بقعة حمراء وكأنها دماء على خد الدمية المكور فتحسسها بيده..ويصدر صوت من الدمية وكأنها تتألم، فيتراجع رياض إلى الخلف من الصدمة وتسقط الدمية من يده.. ويستجمع شجاعته ويتقدم منها ويلمسها بطرف اصبعه، وكانت لا تبدو صلبة كما كانت وكأنها صنعت من لحم حقيقي..فتتسارع دقات قلب المحقق، ويرفع الدمية بين يديه..وكم كانت المفاجأة صادمة، لقد كان رأسها مهشما من الخلف والدماء تسيل منه فلطخت ثوبها الجميل...ويفقد رياض السيطرة على أعصابه، ويرميها بأقصى قوته، ثم يخرج مهرولا وهو يصيح:

_ما هذا المكان اللعين!؟أدركوني..أصوات غريبة ودمية حية..ادركوني..

ويهرع أفراد من الشرطة إلى المنزل، فيجدون رياض في حالة هستيرية فيحاولون تهدئته، وكان يقول:

_دماء..دماء في كل مكان..أبعدوا عني هذه الدمية اللعينة..

وكان أحدهم يمسك بطرف يده وهو يقول:

_هدأ من روعك يا سيدي..لم نجد أي أثر لدماء في المكان ..وهذه الدمية مجرد لعبة خشبية وجدناها في فراش الصبية المفقودة..لا بد أنك أصبت بالارهاق جراء العمل على عدة قضايا في الآونة الأخيرة..

رجع رياض إلى بيته وهو شارد الذهن...وكان يفكر في ذلك المنزل الغريب، وكان يعاني من الأرق حتى وقت متأخر من اللليل...وكان أثناء سهره الطويل يقلب سجلات العائلات التي تداولت على كراء ذلك المنزل عندما استرع انتباهه آخر من سكن المنزل قبل عائلة لينا..وكانت تقطن هذا المنزل سيدة توفيت في

ظروف غامضة، وكانت تدعى ليلى..شعر رياض بأن خيطا ما يربط هذه الوفاة بالأحداث التي تقع الآن، فقرر التعمق في تفاصيل الحادثة التي وقعت قبل عشر سنوات...وكان القاطنون بجوار الهالكة قد اشتموا روائح كريهة صادرة من المنزل، وسرعان ما حضرت الشرطة، وبعد أن خلعوا الباب هالهم وجود السيدة ميتة فوق كرسيها الخشبي، وقد استغربوا للحالة التي وجدوها عليها، فقد كانت تتصفح كتاب ما مرتدية نظارتها حتى أنهم ظنوا في الوهلة الأولى أنها على قيد الحياة، و عندما اقتربوا منها صعقوا لمنظر الديدان وهي تحفر خنادق بجسدها المتعفن، ولم يجد الطبيب الشرعي أي أثر لعنف أو اعتداء، مما زاد هذه الوفاة غرابة..وكان رياض قد حاول معرفة تفاصيل حياتها العائلية، فعلم أنها سيدة وحيدة مطلقة تقطن في ذلك المنزل، وكانت تملك ابنة صغيرة تعيش مع والدها بعد أن حكمت المحكمة لصالحه بالحضانة، وكان طليقها يزورها برفقة ابنتهما بين الفينة والأخرى، ولكن أخباره انقطعت منذ مدة بعيدة ولا يعلم له أي عنوان..

ويمسك رياض ذقنه، وكان قد غرق في تفكير عميق، ويهتف في نفسه:

_إن الغموض يحوم حول هذه السيدة، كما أن طريقة وفاتها تثير الشكوك.. وما سر اختفاء طليقها وابنتهما!؟؟..لابد أن في الأمر لغزا ما..

ويقطع عنه تفكيره صوت قرقعة النافذة، وكانت الرياح تعصف بقوة في تلك الليلة، فيهرع من مكانه ليعيد اغلاق النافذة ..وكان يتأمل الظلام الدامس خلف زجاج النافذة، وكانت ظلال الأشجار تتراقص كالأشباح فترتعد فرائصهو يغلق النافذة مسرعا..ويتناهى إلى مسامعه صوت

_لينا..حبيبتي..أنا ماما..أنا أمك ليلى..

لم يصدق رياض ما سمعه، وتسمر في مكانه من شدة الصدمة، وعندما استفاق من ذهوله، أخد يجري يمنة و يسرة، وكان يشعل الأضواء في كامل أرجاء المنزل..

وظل على حاله ..لم يغمض له جفن حتى أشرقت الشمس، فأسرع بإتجاه مكتبه، وكان يحاول أن يقنع نفسه بأن ما سمعه تلك الليلة ليس سوى أضغاث أحلام..

لم يعتقد المحقق من قبل بوجود الأشباح، ولكنه اليوم بدأ يعتريه الشك بأن ما سمعه هو صوت شبح..بدأت تخامره هذه الأفكار، وكان لا بد أن يقطع الشك باليقين..فما فتئ منذ تلك الحادثة يجمع الكتب والمراجع التي تتحدث عن الأشباح..

وكان قد غادر المنزل ليستقر بغرفة بأحد النزل مخافة أن يعاود ذلك الشبح بالظهور...وكان في إحدى الليالي مستلقيا على ظهره يقرأ أحد الكتب، وكان الكتاب يتحدث عن الأطياف التي تتمثل للإنسان فهي إما أرواح الموتى أو كائنات أخرى من الجن والشياطين..وكان الكتاب يعدد الحوادث والشهادات لأناس رأوا أطياف الموتى و ظلالا، على شكل آدمي، تتحرك ..وكانت بعض الحوادث قد تسببت في سقوط ضحايا..فهتف المحقق في نفسه:

_لا بد أن ذلك الصوت الذي سمعت هو شبح السيدة المتوفاة في المنزل..

وكان قد قرأ أنه يمكن استحضار روح المتوفى وذلك عبر إضاءة المكان الذي توفي فيه بشموع يتوسطها كأس بلوري ثم تلاوة بعض التعويذات، بعدها يتحرك الكأس وتكون الروح محتجزة بداخله..ومع قراءة تعويذات أخرى تغادر الروح إلى الأبد، ولا تعاود الرجوع إلى المكان...

وكان قد قرر المجازفة واستحضار روح السيدة المدعاة ليلى والتي توفيت منذ زمن في منزل لينا...وكان لا بد له أن يجد سبب ليقنع والدي الفتاة المفقودة بمغادرة المنزل..

دق رياض باب المنزل، وخرج والد الفتاة وبعد أن تبادلا التحايا، بادره الأب

الملتاع بالسؤال:

_هل من جديد؟..أين وصل التحقيق..؟

_نحن نتقدم..ان شاء الله سوف نجدها قريبا..لقد حصلت حادثتي اختفاء قبل ذلك لطفلين بنفس عمر ابنتك، ويبدو أن نفس الشخص يقف وراء ذلك.. عموما يجب عليك أنت وزوجتك ترك المنزل لفترة..فدائما ما يحوم المجرم حول مكان جريمته، ومن باب الحيطة كذلك عليكما أن تبتعدا هذه المدة..

واقتنع الأب بكلام المحقق، وماهي إلا ساعات حتى غادر المنزل، فوجد رياض الفرصة سانحة لينفذ ما يجول في ذهنه تلك الليلة...

مع انتصاف الليل أضاء الشموع، وبدأ في تلاوة التعويذات التي قرأها، وكان السكون يعم المكان..وتحرك الكأس البلوري فخفق قلب المحقق بشدة..وكان الكأس يتحرك صوب الشموع من تلقاء نفسه في مشهد تنحبس له الأنفاس..وكان المحقق يتصبب عرقا ويقول:

_يا الله ..هذا أشبه بالسحر..أي مصيبة ورطت بها نفسي..

ويمزق السكون صدى الصوت نفسه الذي سمعه آخر مرة..

_لينا في القبو رفقة شقيقيها..ايقظها انها نائمة..أنا ماما ليلى..

وينتفظ رياض مذعورا، وقد نسي ما قرأه من تعويذات من فرط الخوف الذي أصابه...ويضرب الكأس بساقه فيتاطر الزجاج هنا وهناك ويضيء الغرفة بعد أن دهس كل الشموع وهو يصيح..

_ابتعد عني أيها الشبح..ما الذي أقدمت على فعله؟؟..يا إلاهي..

وبعد أن هدأ، تذكر الكلمات التي سمعها..وقال في نفسه:

_هل هناك قبو في هذا المنزل؟..سأبحث عنه وإن وجدته فلا بد أن الصوت الذي سمعته حقيقي..

وراح يجول أنحاء المنزل يبحث عن هذا القبو المزعوم، وكان يتحسس الأرضية برجله، وعندما دخل المطبخ لاحظ بعد أن ضرب القاعة أن صدى الصوت غريب نوعا ما وكأن فراغا ما تحته، فأسرع إلى مستودع السيارات وأحضر قطعة من الحديد، وبعد أن حطم الجزء العلوي وجد فتحة محكمة الإغلاق بباب حديدي.. فتوقف لوهلة وقد غمرته مشاعر الخوف والذهول في آن واحد..ثم خلع الباب وكان يفتح على مدرج طويل يخفي وراءه سردابا...

أشعل مصباحه اليدوي ونزل بخطوات حذرة ..وكان يسير ويتفحص المكان بعينين ثاقبتين..ويرى في آخر السرداب صندوقا خشبيا، ويقرر معرفة ما بداخله، وعندما فتحه كاد قلبه يتوقف من هول الصدمة..لقد وجد جثثا لأربعة أطفال ، وكانت جثة الصغيرة لينا موجودة بينهم و كانت لا تزال تحافظ على بعض ملامحها بينما لم يبق من الآخرين سوى قطع من العظام....ويغلق باب القبو فجأة، فيصيح المحقق مذعورا، ويظل كذلك يبكي ويصيح حتى خارت قواه وأغمي عليه...

وتمر الأيام، وتنقطع أخبار المحقق رياض الذي لم يذهب إلى العمل منذ مدة..ويقرر الوالدان العودة لمنزلهما لمعرفة مسار التحقيق..وبعد أن فتحا الباب الخارجي ودلفا إلى المطبخ استغربا لوجود فتحة في الأرضية، وقررا الدخول.. وينزل الاثنان، وكانت الزوجة متشبثة بقميص زوجها وتسير خلفه، وكانت الروائح الكريهة تغمر المكان..وسمعا صوتا يقول:

_مرحبا بكما..لينا بانتظاركما..انها جميلة، لقد كان لي ابنة مثلها، ولقد أحضرتها مع والدها إلى هنا وهي الآن تلعب مع لينا..لينا حبيبتي!! والداك هنا، سأقفل الباب..وداعا لينا..

ومرت مدة ليست بالقصيرة على تلك الحادثة، ولم يظهر أي أثر للبنت المفقودة و والديها ولا للمحقق رياض، واجتمع والي المدينة بمديري الأمن، وكان ينظر من النافذة للناس المجتمعين حول مقر الولاية قبل أن يدخل الجميع قاعة الاجتماع، فينزل الستار ويبادرهم بالقول:

_أهلا بكم..تفضلوا..لا أخفيكم سرا فقد تسرب الخوف والهلع في نفوس الأهالي.. وإني أخشى أن تعم الفوضى أنحاء المدينة، وان وصل صدى هذه الاحتجاجات إلى السلطات العليا فلن يهنأ أحد منا بمنصبه..

نظر الجميع إلى بعضهم بعضا، وكانوا يتراشقون بنظرات ملؤها الخوف والارتياب، وكانوا يتهامسون فيما بينهم، ويقطع عليهم الوالي شرودهم ويواصل كلامه:

_لذلك أرجو منكم أن تكثفوا حملات البحث حول منازل المفقودين، وقد طالبت السلطات بمدنا بمروحية عسكرية لتسهيل عملية البحث..

وبعد حوالي الساعة يخرج الجميع، وقد عقدوا العزم على ايجاد المفقودين، أو حتى جثثهم على الأقل، مهما كلفهم الأمر..

دخل فريق البحث إلى منزل لينا مدججا بكل المعدات الحديثة، وكانو قد عثروا على القبو المحفور في منتصف المطبخ، وتوغل فيه فريق أول مكون من خمس أشخاص فأضاؤوا المكان وكانوا يملكون آلات استشعار عن بعدتترصد أي أثر للحياة في ذلك المكان المقفر..ولم يعثروا في ذلك القبو على أي شيء ما عدى صندوق خاو.. وكان القبو يفتح على سرداب طويل مظلم أشبه بقنوات الصرف الصحي..

ولم تدلهم آلات الاستشعار على أي انسان حي أو ميت..وكانت يتوغلون في السرداب بخطوات ثابتة، وكانو يلقون المتفجرات هنا وهناك وهي أشبه بالألعاب

النارية فتضيء السرداب..

ويصل فريق البحث أخيرا إلى آخر النفق الغريب، وكانت فتحة مضيئة.. وعندما خرج الفريق وجدوا أنفسهم في الغابة المجاورة..ويقول أحدهم:

_أي مكان هذا!؟وكأنه نفق حفر أثناء الحروب، يبدو أن السر وراء هذه الاختفاءات يكمن في هذه الغابة..

وكانت المروحية تتبع فريق البحث، وكانت تمشط الغابة من الأعلى وتدنو من الأشجار الوارفة، وكان الفريق ينتشر في تلك الغابة بعد أن وصلتهم التعزيزات.. وترصد المروحية شخصا ما ملقى حذو نهر وسط الغابة، فتعطي إشارة لفريق البحث الذين سارعوا بالوصول إلى النقطة المحددة..

وماهي إلا دقائق حتى أدرك الفريق المكان المطلوب، وكانوا قد وجدوا شخص ما ملقى على بطنه وقد غمرت المياه بعض أطرافه..ويتقدم أحدهم نحوه ويديره إلى الطرف الآخر ثم يضع يده على قلبه يتمتم قائلا:

_مازال قلبه ينبض..إنه المحقق رياض..

ويحاول الفريق الطبي تقديم الاسعافات الأولية له قبل نقله إلى المستشفى وكانت المروحية لا تستطيع النزول في تلك التضاريس القاسية...وكان المحقق رياض قد بدأ يفتح عينيه ببطئ، وكان يحاول أن يتكلم، فيقترب منه أحد المسعفين ليفهم ما يقول ثم ينظر باستغراب لزملائه ويقول:

_إنه يقول كلاما غريبا.."ارهبوا، تلك المشعوذة ستقضي عليكم جميعا"..

_عن أي مشعوذة يتحدث، وما الذي أتى به إلى هنا، لا بد أنه تعرض إلى إرهاق كبير جعله يهذي، كما أن حرارته مرتفعة جدا..

وتنزل المروحية فوق أحد الأحجار الصلبة، ويضع الفريق المصاب بداخلها، وبعد أن دلف الجميع وهموا بالاقلاع، يتوقف محرك المروحية فجأة...

ويتردد في أرجاء الغابة صوت مخيف:

_أنا ماما ليلى.. لا يمكنكم الذهاب هكذا، سأعيدكم إلى القبو لينا بانتظاركم... لينا حبيبتي لدينا ضيوف..استعدي لاستقبالهم..

وتعم الفوضى والتدافع داخل المروحية، وكانت الأبواب تأبى أن تفتح، ودب الخوف والهلع في صفوف الركاب..وكانوا يتوجهون بالسؤال نحو المحقق:

_أخبرنا..ما الذي يحصل هنا!!؟؟

وكان رياض يتمتم:

_ألم أخبركم..لن تترك هذه المشعوذة أي شخص اكتشف القبو قبل أن تدفنه فيه..انها لم تمت بل تعلمت السحر والشعوذة، وتعلمت استحضار الأرواح والشياطين وهذه بعض الطلامس التي وجدتها في القبو..

ويخرج من جيبه أشياء غريبة..صور لكتابات ومخططات غريبة.ثم يواصل قوله:

_وإني نجحت في الهروب من براثن سحرها، وكنت قد تعلمت بعضا منه لأنقذ نفسي ولكنها ظلت تلاحقني

وكان الجميع ينظرون إليه باستغراب، وكأنهم غير مصدقين ما يقوله المحقق..

ويظلم المكان فجأة..ويتحسس أحدهم مصباحه اليدوي ثم يقوم بإضاءة المكان، وكانت المفاجأة..لقد وجد الجميع أنفسهم في القبو وقد أقفل بابه الذي يفتح على المطبخ كما اختفى النفق المؤدي إلى الغابة، ويتعالى صوت في الآفاق:

_لينا حبيبتي..أتى الضيوف..

كش ملك

نزل المحقّق رياض من سيّارته , متدثّرا معطفه الجلديّ الطّويل, علّه يحميه من رذاذ المطر المتساقط هنا وهناك,يبدو أنه وصل متأخّرا, فقد سبقه إلى مكان الجريمة رجال الشرطة المنتشرين حول المكان كخلّية النحْل, لا بد أن عدنان, عون الاسقبال, قد أخذ غفوة, كعادته ,قبل أن يخبره بأنهم وجدوا جثة مطعونة على قارعة الطريق ..تقدم نحوالحشد مُسترقا النظرات إلى ساعته التي كانت تشير إلى منتصف الليل ونصف. " لا بد أن الجريمة وقعت قبل ساعتين على أقصى تقدير, حيث تقِلّ الحركة في مثل ذلك الجوّالشتوي منذ العاشرة مساء." ..هكذا كان رياض يحدث نفسه حتى قبل التعرف إلى الجثة..

تقدّم بهدوء أكسبته ايّاه سنواته الطويلة من العمل, في عالم تطغى عليه لغة الدم على جميع اللغات..تأمل الجثة ,فإذا هي لكهل في الخمسين من عمره ملقى على ظهره والسكين لا تزال مغروسة في صدره,ولا توجد بها أي بصمات كما أخبره بذلك خالد-الطبيب الجنائي-,لاحظ رياض قطرات دم منتشرة حول الجثة بطريقة غير عادية,وكأن أحدهم قام بالعبث بها .."هل وجد الجاني الوقت الكافي ليلهو بدماء ضحيته,أي قلب قاسٍ هذا؟؟."هكذا تساءل المحقّق في قرارة نفسه ثم قرر تتبع قطرات الدم, تنتهي القطرات عند فتحة لقنوات صرف المياه,مغلقة بشبكة من الحديد الصلب..شمّر على ضراعه ورفع الغطاء فوجد سلّما حديديّا ,أسفله سِرْداب مُظلم,نزل المدرج ببطئ ,وأعْينُ رجال الشرطة تتابع جميع تحركاته,و عندما وصل إلى الأسفل فتح المصباح اليدوي و توغّل قليلا واضعا يده على أنفه وفمه لتجنب الروائح الكريهة ,فذُهل لما رأى, كان إسمه مكتوبا بدم الضحية-هكذا

حدّثته نفسه أنه دم المجني عليه، حتى قبل إجراء الإختبارات-على الجدار,أقصى السرداب ..طلب من الأخصايين أخذ جميع العيّنات و البصمات ,ومده بتقرير مفصل في أسرع وقت.تبادرت إلى ذهنه عديد الأسئلة.."هل أن الأمر مجرد صدفة؟ أم إن هذا المجرم يستهدفه؟".. لم يعد لبيته تلك الليلة,بل قضى كامل الليل في مكتبه يراجع الأرشيف وسِجلّ كل المجرمين الذين مروا على يديه,فلم يجد شيئا مهما يجيب على أسئلته....رغم تأثره بتلك الهواجس إلا أنه في الأيام التالية كان قد نسي في خضم المشاغل العدة و ربما اطمأن إلى أن الأمر مجرد صدفة ولم يتذكّر هذه الحادثة مرّة أخرى إلا عندما زاره صديقه القديم , المحقّق مراد, في بيته فصافحه بحرارة ثم قال

- مرحبا صديقي رياض ,كم اشتقت لأيام الكلّية الجميلة التي قضيناها معا.. ها أننا نلتقي مجددا بعد أن غزا الشيب رأسك..حسنا..لقد تناهت إلى مسامعي تلك الجريمة الغريبة ,ما إن علمت أن ذلك المخبول قد كتب إسمك على جدار النفق حتى سارعت إلى جمع كل المعلومات على الضحية و جئت لنتناقش حول أطوار القضية ,ربما نهتدي إلى حل ما.. وهنا ابتسم رياض وقال

–اسمع يا عزيزي مراد,لا يجب أن نهول الأمور ,فقد يكون الأمر مجرد صدفة لا غير, فكيف لهذا القاتل, إن كان يستهدفني, أن يعلم أنني سأكلف بهذه القضية؟

-ولكن,كم من المفتشين في هاته الدائرة؟,على ما أعلم أنت الوحيد هنا..إن أقرب خفر شرطة يبعد كيلومترات ومن السهل أن يخبره بذلك أي عون له علاقة ما به,فيجب أن لا نلغي هاته الفكرة و نعمل على جمع البراهين..

-أجل لك كل الحق..لقد راجعت كل السجلات في الآونة الأخيرة فلم أجد لي أي عدوّ خفيّ قد يفكر في إيذائي...

–دعنا نتمعن أوّلا في معطيات الضحيّة فكما يُقال, تُخفي الضحية بعض أسرار

قاتلها,بالنسبة لهذه الضحية فهو كهل في الخمسين,تقريبا بفس عمرنا,عامل في شركة بترولية..

استطرد رياض قائلا

-ولا تربطني به أي علاقة,لا من قريب ولا من بعيد..

-العلاقة الوحيدة هي مسألة السن المتقارب بيننا ,قد تكون مؤشرا لشيء ما.. حقا,ماذا أفرزت نتيجة الإختبارات الطبية؟

-لا شيء مهم,لا بصمات,لا شيء.. ,سوى أن الجريمة وقعت، كما خمنت، قي تمام العاشرة والنصف، كما أن فصيلة الدم الذي وُجد على الحائط هي نفسها فصيلة دم الضحية, كما توقعت,لقد أكد لي الطبيب الشرعي ذلك.بالنسبة للحياة الخاصة للضحية ,فليس له أي عداءات تستوجب هذا القتل العنيف سوى بعض المشاكل الزوجية بسبب إدمانه الخمر,وقد أكد شهود مغادرته الحانة وحيدا تلك الليلة كعادته ولم يحدث له أي شيء يسترعي الإنتباه مما يزيد هذه القضية غموضا...

-لا بد أن نعود إذا إلى الوراء وندرس سجلّات الجرائم القديمة التي وقعت في المحافظات القريبة من هنا ,وقد جمعت لذلك كل المعطيات الخاصة بالجرائم المسجّلة بالمحافظات القريبة من مسرح الجريمةفي العشر سنوات الأخيرة..

-هذا رائع فلنتفحصها معا..انهمك الإثنان في تقليب الأوراق دون أن ينبسا ببنت شفة، وقطع هذا الصمت رياض قائلا

-لنحصرمجال البحث في العشر سنوات الأخيرة حيث حدثت جريمة قتل لبنت صغيرة ذات عشر سنوات و تُدعى "رحاب".قاطعه مراد قائلا

-وقد سُجّلت ضد مجهول، وتعطلت التحقيقات..

-وجريمة قتل أخرى لشاب في العشرينيات من عمره يُدعى يُسْري، سُجلت كذلك ضد مجهول، ولا شيء في هاتين الجريمتين يربط مع الهالك في قضيتنا..هل وجدت شيئا؟

-جريمة ثالثة، في نفس الفترة تقريبا، ولا تبعد كثيرا عن هنا، طفْلة في الحادية عشرة من عمرها تُدعى أحلام..لم أجد أي رابط مع الجرائم الأخرى

صمت قليلا ثم أتبع....

-وجريمة قتل لشاب عشريني يُدعى ضياء، سجلت جميع الجرائم ضد مجهول ..إنه لأمر محيّر، لا أعتقد أنه حصلت جرائم أخرى بعد ذلك..

دقّق رياض النّظر في سجلات هاته الجرائم المروعة، مقلبا الأوراق يمنة و يسرة، بتمعن كبير، ثم توقف فجأة، وقال لصديقه

-رحاب...الحرف الأول من اسم الضحية الأولى هو"ر",واسم الضحية الثانية هو يسري، يعني أن الحرف الأول هو "ي",أما الضحية الثالثة فهي أحلام,و "أ" هو أول حرف من اسمها، الضحيّة الرابعة يدعى ضياء يعني "ض" هو أول حرف لاسمه.. ألم تلاحظ شيئا؟

-هل من الممكن هذا؟؟؟إن الأربع حروف تكون اسمك,هل أن القاتل يريد توجيه رسالة لك منذ زمن؟؟

-فعلا وهو كذلك، لم يعد لي أدنى شك أن هذا المخبول يستهدفني من خلال جرائمه، ولا بد أنني على لائحة ضحاياه...

منذ زيارة صديقه مراد تضاعف اهتمام رياض بالقضيّة,وكان اهتمامه قبل ذلك لا يعدو اهتمام أي مفتّش بحادثة قتل لا تختلف عن نظيراتها,وكان يعتقد أن هذا الكهل السكّير قد ذهب ضحيّة إحدى الشجارات العابرة في إحدى الحانات

التي كان يرتادها، وأن كتابة اسمه على أحد جدارن قنوات صرف المياه لا يعدو أن يكون محض صدفة.لكن بعد الحديث الطويل الذي جمعه بالمحقق مراد، وبعد ما جمعاه من دلائل فقد أحس بهواجس تنخر عقله وتخبره بأن هذا الأمرلا يمكن أن يكون مصادفة، لقد اتّخذت الأحداث منعرجا خطيرا قد يكلفه حياته.. كان الوقت قد تأخر فهمّ مراد بمغادرة بيت صديقه قبل أن يقف و يخاطبه قائلا

-عمر الضحية الأولى هو عشْر سنوات والضحية الثانية هو عشرون سنة و الثالثة طفلة في الحادية عشرة من عمرها والجريمة الرابعة لشاب في العشرين، إذا جمعنا أعمارالضحايا الأربع سنجد أن مجموعها خمسون تقريبا وهو يوافق نفس عمر الضحية الخامسة الذي هو نفسه عمرك..هل هذه مصادفة؟هل كان القاتل ينتظر حتى تبلغ الخمسين ليرسل لك بإشارة واضحة مكتوبة بدم ضحيّته ليوجه إليك رسالة ما؟..

-لم يعد يعتريني أي شك بأن هذا الصديق القديم يلعب لعبة قاتلة معي، إنه فقط يقتل الأبرياء نكالة بي ، سوف أُنهي هذه اللعبة قريبا...

لم ينم رياض تلك اليلة، فقد ظلّ يراجع شريط حياته، ويستجمع كلّ الذكريات ’ليبحث عن أيّ مؤشّر يرشده نحو القاتل..تذكّر أنّه في عُمر خمس سنوات، تعرّض إلى حادث سيّارة مع والدته، نجا منه بأعجوبة هو ووالدته كذلك، لكنه لا يعلم ما حصل للسيّارة الأخرى، فقد يكون هذا القاتل على علاقة بصاحب السيّارة... وكان سجلّ الحوادث الذي بحوزته، لا يشير إلى وقوع قتلى في تلك الحادثة، فترك هاته الفكرة جانبا دون أن يستبعدها تماما، تذكّر كذلك أنّه في سنّ الثمان سنوات تسبّب في رفت تلميذٍ نهائياّ من المدرسة، فبعد أن تتالت السرقات في المدرسة، آخرها محفظته التي سُرقت بالكامل، يتذكر أنّه اتّهم زميله الذي كان يشاركه نفس المقعد، فتمّ رفته بعد استجواب كل التّلاميذ..حاول تذكّر التّلميذ المرفوت،

فخانته ذاكرته...تذكّر رياض كذلك أنّه في سنّ العشرين، أيام الكليّة، قد عاش قصة حبّ مع فتاة، وكانت قد تركته بعد خيانته لها، وكان قد ندم وأدمن بعدها الكحول و السّجائر.."هل يُمكن أن يكون القاتل فتاة؟..لا...لا..إنّها جرائم شديدة الوحشيّة، كما أنها تتطلب قوّة بدنيّة، لكنّه إحتمال وارد..."، هكذا حدّث رياض نفسه، ثمّ واصل استحضار شريط حياته، في سنّ العشرين يتذكّر كذلك أنّه أنقذ شابّا من الإنتحار في غرف من غرف المبيت الجامعيّ، فهل لهذه الأحداث علاقة بالقاتل المتسلسل؟..لم يجد رياض أي رابط بين كلّ هاته الأحداث، وتثاقل رأسه، وخلد للنّوم مع بزوغ خيوط الفجر الأولى..

في الغد، رجع إلى مسرح الجريمة صحبة صديقه مراد، فلا بدّ أنّ المجرم أخطأ ولو خطأ بسيطا، ترك دليلا لم ينتبه إليه رجال الشّرطة، وكان رياض يتأمّل الرصيف الذّي وُجدت فيه الجثّة، ونزل إلى القناة، وأمعن النّظر في الكتابة المرسومة على الحائط، وكان مراد يتبعه كظلّه وتوقّف موجّها إليه الخطاب

- لم يترك القاتل أيّة بصمات، إذن لا بدّ أنه ترك شيئا آخر يرشدُنا نحو ضحيّته القادمة، فيبدو أنّه قد انتابه الغرورلأنّنا لم نهتد إلى رسائله المشفّرة..

فأومأ رياض برأسه موافقا وقال

-بالتأكيد..بالتّأكيد..لا بدّ أنّه ترك لنا دليلا، فحدْسي يُخبرني بأنّ جريمة ما ستقع في القريب العاجل.

استرع انتباه المحقق رياض صورة حصان ملقاة في القناة، فقلبها بين يديه مرارا و تكرارا وغرق في تفكير عميق، وهتف في نفسه:

_هل تخفي هذه الصورة رسالة ما؟..

وسرعان ما أخرج من جيبه تصميم المدينة، وأخذ يدقق فيه مليا، وكان

التصميم على شكل مربع تقسمه الطرقات إلى قرابة أربعة وستين قطعة متساوية، وتحده ثمان قطع عموديا وثمان قطع أفقيا..وتبادر إلى ذهن المحقق وهو ينظر إلى التصميم صورة للوحة الشطرنج..تأمل مكان الجثة، فأذا بها تقع حسب التصميم في القطعة الثانية أفقيا..واسترجع في ذهنه رقعة الشطرنج وصاح فزعا:

_أوليس هذا موقع الحصان!!؟؟

وانتابته الحيرة والذهول، وكان يحاول تفسير ما اهتدى إليه، فيتمتم قائلا:

_الحصان يتحرك في لعبة الشطرنج ثلاث قطع أفقيا وواحدة أخرى عموديا.. ويوافق في التصميم مكان وجود الملهى الليلي..ولكنه قادر أن يتحرك كذلك ثلاث قطع عموديا وأخرى أفقيا حيث تتواجد في التصميم قاعة شاي...هل أراد القاتل أن يخبرني بأن الحصان سيتحرك نحو مكان الجريمة الثانية..؟!!نعم..نعم!! هذا ما أراده!..هناك احتمالان ولكن الحصان قادر على التحرك كذلك قطعة أفقيا من الجهة الأخرى ثم يصعد عموديا ثلاث قطع أين يتواجد المسرح في التصميم....إن هذا المخبول يخيرني بين ثلاث مواقع لارتكاب جريمته..يجب أن أسرع وأدركه قبل أن يحصل ذلك!!

وامتطى رياض سيارته مسرعا، وكان لديه ثلاث خيارات، فحدثته نفسه بأن يذهب إلى قاعة الشاي...وما إن اقترب من المكان حتى ذهل لوجود سيارات شرطة وسيارة إسعاف بالمكان...توقف مصدوما وألقى برأسه على المقود..لا بد أن جريمة قد وقعت، لقد صدقت تخميناته..لم يعد لديه أدنى شك بأنه أمام قاتل متسلسل يلعب معه لعبة الشطرنج...

نزل المحقق من السيارة، وكان يخترق الحشود شارد الذهن، وتقدم نحو الضحية..لقد كانت سيدة في الخمسين من عمرها، وكانت قد قتلت في مرحاض لقاعة الشاي..ويسأل أحد رجال الشرطة بصوت خافت:

_ألم يقد الطبيب الشرعي زمن الوفاة؟

ويجيبه الشرطي وهو يقوم بوضع أشرطة صفراء لاصقة لتحيط بمكان الجريمة..

_حوالي الساعة العاشرة والنصف، وهو ما أكده النادل فقد رآها تدخل بيت الراحة في تمام العاشرة والربع، ومإن دخلت خلفها حريفة حتى وجدتها تتخبط في دمائها..

_إنه نفس توقيت الجريمة السابقة!!..هذا لا يمكن أن يحدث !!لا بد أن هناك خطأ ما..!!كيف لمجرم أن يرتكب جرائمه في نفس الوقت؟؟

_عن أي جريمة تتحدث يا سيدي؟

ولا يعير رياض الشرطي أي إهتمام، ويدقق في الضحية، وكان الثقب في رأسها يدل على أنها قتلت بمسدس كاتم للصوت، فلم يسمع أي أحد صوت إطلاق رصاص، ويفتش رياض ملابسها بدقة..ويجد بين طيات ثياب الضحية صورة لقبعة..فيغرق في التفكير ويقول في نفسه:

_هل تعمد إرسال إشارة أخرى لي؟!!..لكن ما دلالة القبعة؟؟..آه فهمت إنها القبعة التي يرتديها الجنود في الحروب!! لا بد أنه يشير إلى بيدق الجندي!! يا للهول جريمة أخرى ستقع!!!قد أكون مخطئا..ربما يقصد بالقبعة شيئا آخر..أو لعلةهذه الصورة تعود للسيدة المتوفاة..

ويخرج رياض من المكان هائما على وجهه يمشط الطرقات، إلى أن وصل منزله، ولم ينم تلك الليلة حتى أرهقه التفكير فنام مع بزوغ شمس نهار آخر..وفي المساء خرج متثاقلا، وكان يعيد الأحداث التي مرت عليه، ويحاول أن يفهم مضمون الإشارة الأخيرة التي أرسلها له صديقه القديم، وكان يحدث نفسه:

_لا يمكن للجندي أن يتحرك للوراء..بامكانه التقدم في مربع واحد، وهناك احتمالان..

ويجذب تصميم المدينة من جيب سرواله ويصيح:

بالنسبة لموقع قاعة الشاي، فشمالا يوجد المستوصف و يمينا توجد المدرسة الابتدائية..!!! لا بد أنه يشير لي لموقع الجريمة القادمة!!

وينظر في ساعته اليدوية..فينتابه الذعر، ويتغير لون وجهه، ويقول:

_إنه تمام العاشرة والربع، مازال لدي ربع ساعة...

ويمتطي سيارته، وينطلق مسرعا يسابق الريح نحو المستوصف، ويدخل راكضا يبحث هنا وهناك عن أي دليل لجريمة، غير آبه بتذمر المرضى والأطباء...ولا يجد شيئا..

ويخرج من المكان ثم يتجه نحو المدرسة، وينظر في ساعته، ويصيح:

_آه!!؟إنها تمام العاشرة والنصف!!لقد فات الألوان!!؟

وما إن اقترب من المدرسة حتى وجد الباب مقفلا، فأخذ يصيح مناديا الحارس، فلم يجبه أي أحد..وقفز رياض من أعلى السور..فذهل لما رأى، لقد كان الحارس الليلي ملقى في بركة من الدماء، فألقى بنفسه على الأرض من شدة الصدمة، وأظلمت الدنيا أمامه..

واستفاق المحقق من غيبوبته على صدى صوت يناديه:

_رياض!!رياض!!هل غفوت..؟؟

فيجيب مذعورا:

_من؟..من يناديني؟؟

_إنه أنا مراد..هل غفوت أثناء اللعب...كش ملك.. لقد خسرت الرهان..

السحر الأسود

سمع الراهب كثيرا عن السحر الأسود، أحاديث يتداولها الناس، فيها الكثير من الحقائق الممزوجة

بالأساطير، فقرر اكتشاف هذا العالم الروحي المليء بالأسرار، فجمع لذلك الكتب والمجلدات التي أخبرت

عنه لعله يتعرف على حقيقة هذا السحر.

استرع انتباهه مجلد ضخم، يبدو انه كتب في زمن غابر، أوراقه متآكلة مشدودة بخيوط صفراء ,أما الكتابة

فحروفها من أبجديات قديمة تعود الى الحقبة البابلية...وكان الراهب قد نجح في فك رموز

عنوان الكتاب وهو 'الطريق القويم للسحر العظيم'، فظن أنه وصل الى غايته...

انطلق الكتاب بتعريف هذا النوع من السحر الذي ظهر في بابل القديمة، فلم يشهد الوجود منذ الأزل أشد قوة وخطرا منه.. وتقول مقدمة الكتاب أنه قد اجتمع أعظم

السحرة في واد الموت ليوثقوا أسرار السحر العظيم حتى يتوارثه السحرة من بعدهم فظل ينتقل من جيل إلى جيل حتى وصل بين يدي الراهب..

ويقرأ في المقدمة أن الكتاب مقسم إلى فصول وكل فصل هو رتبة من رتب السحر الأسود .لم يكن الراهب يريد أن يكون ساحرا فكثيرا ما قرأعن خطره في

كتابه المقدس لكن فضوله دفعهإلى الغوص في هذا العالم الخفي، ويقرر المواصلة.. تحدث الفصل الأول عن الغاية من إنشاء هذا السحر، إذ يقول:' الوجود مبني على صراع قوى الخير والشر، وهذا السحر يمهد الطريق لانتصار إله الشر في النهاية ألا وهو الشيطان الاكبر، و عظيم السحرة صاحب أعلى درجات السحر الاسود يصل الى مرتبة الشيطان الأكبر لكنه يبقى عبدا له ولا يخرج عن طاعته .أول مرحلة لدخول عالم هذا السحر هو أن يتخلص الإنسان من الصفات الانسانية فيه التي أدت الى ضعفه، يجب أن يرمي بقيم كالرحمة و التآخي والروابط الأسرية وراء ظهره، و يجب

أن يتخلى كذلك عن أعرافه الاجتماعية و مقدساته من أجل إلاهه الجديد الذي سيمنحه القوة' .لقد نص الكتاب على أن هذه المرحلة هي أهم المراحل وأصعبها..حدث الراهب نفسه قائلا "لا ضير في أن

اجرب لن أخسر شيئا على كل حال"..يقول الكتاب:'أيها الإنسان !..في مرحلة دخولك الأولى إلى عالم الأرواح لا بد ان تمتلك جسدا بدون روح، أي شخصا متوفى حديثا او على الأقل قطعة منه، فتبقى روحه أسيرة عندك فتنفذ طلباتك و تقربك من العالم الآخر، و لتُزيل خوفك وتستطيع فعل ذلك لا بد أن تحرق جميع الكتب المقدسة، وتجمع غبارها في قطعة قماش، ثم تحمله معك أينما ذهبت، لتدخل به عالم الأرواح...ارتعدت فرائص الراهب وهو يقرأ هذا الكلام...ثم استجمع كامل شجاعته و قام الى رفوف مكتبته، فجمع كل الكتب المقدسة التي يملكها، ووضعها في المدفأة وأوقد فيها النار، فشعر بعدها وهو يحدق في ألسنة اللهب

المتطايرة ببعض الطمأنينة..

كانت عقارب الساعة تقترب من منتصف الليل، لقد عقد عزمه على الذهاب إلى المقبرة فلن يكتشف وجوده أحد في هذا الوقت المتاخر. جمع الغبار المتناثر

في المدفأة، ثم وضعه في قطعة قماش، وانطلق صوب المقبرة حاملا معه معولا و فأسا..كان قلبه يزيد في الخفقان كلما اقترب من المقبرة فينزل على قطعة القماش، فيهدأ نسبيا.

اتجه نحو قبر يبدو حديثا، وشرع يحفر بمعوله والعرق يتصبب منه وقلبه يكاد يخرج من صدره، فيتوقف ليضغط على قطعة القماش بقوة ماسحا بها جميع أطرافه..أزاح الغطاء عن القبر فأظلمت الدنيا أمامه، ولم يعد يشعر بشيء.. عندها نزل الى القبر يتحسس الميت، وبعد ان تيقن أنه يمسك بيده هوى عليها بفأسه فقطعها مطمئنا نفسه بأنه ميت و لن يشعر بشيء. تأبط يد المتوفى تحت ذراعه بعد

أن وضعها في كيس ثم قفز خارجا ليعيد القبر كما كان قبل ان يُفتضح أمره.. قفل راجعا.. فإذا به يشاهد الموتى يرفرفون فوق قبورهم فلم يفزع منهم بل ظل يتأملهم وكأن قلبه تحول إلى صخرة .فيهم أناس كثر يعرفهم حق المعرفة لكنه لا يستطيع أن يكلمهم، ويبدو أنه دخل إلى عالم الأرواح كما أخبر بذلك الكتاب.

في طريق العودة، كان الموتى يسيرون خلفه ودخلوا معه إلى المنزل وظلوا محيطين به كامل الليل وهو يحدق بهم إلى أن ظهرت خيوط الفجر الأولى فانفضوا من حوله، فاستسلم بعدها الى النوم..

في الغد بعد ان استفاق في وقت متأخر.انتقل الى قراءة الفصل الثاني الذي يبدأ برسومات غريبة..مربعات

و مثلثلت و أهرامات وأعين تحيط بالرسم من كل جانب حتى أنه شعر كأنها تحدق به، ويتوسط الرسم كله

جمجمة إنسان ومن حوله كتابات تمجد الشيطان ..يقول الكتاب: "أنت الآن

انتقلت إلى المرحلة الثانية و

دخلت عالم الأرواح بنجاح ولا تستطيع أن ترجع للخلف، فتلك الأرواح قد تأذيك لذلك يجب أن تروضها فتحضرها متى تشاء و تبعدها متى تشاء ..لكن قبل كل شيء يجب ان تمضي على تعهد بالدم بأنك لن تتراجع.. فتعيد رسم تلك الرسومات في ورقة على حدة ثم تلونها بدمك و تحملها معك أينما ذهبت".

كان الراهب مصرا على المضي قدما، فشمر على ذراعه وأعاد رسم الأشكال بكامل تفاصيلها الدقيقة، ثم جعل قطرات الدم تتقاطر فوق رسمه بعد أن جرح اصبعه، ثم لون الرسم بالكامل وواصل القراءة..

لكي تروض الأرواح كلها لا بد أن تجلب الشريرة منها، فعادة القتلة و المغتصبون يسهل ترويضهم، فراجع سجل الوفيات واختر روحا تحرسك و تبعد عنك أذى الارواح الأخرى، سوف تتواصل مع هاته الروح الشريرة عن طريق القطعة من الميت، فتضعها تحت وسادتك قبل النوم فتأتيك الروح التي اخترتها في منامك ..

أغلق الراهب الكتاب بعد ان أحس بالتعب، ثم ألقى بنفسه

على أريكته مفكرا بما سيفعل..تبادرت إلى ذهنه صورة سفاح اغتصب و قتل اكثرمن مائة طفل وقد مات في وقت ليس بالبعيد، فرفض إقامة عزاء له في كنيسته. لن يجد أكثر شرا منه، لكن قد لا تقبل روحه

التواصل معه لانه رفض الصلاة عليها..في المساء و بعد أن بدأت أطياف الموتى تجتمع حوله رأى الراهب انه لابد من المحاولة، فوضع يد الميت تحت وسادته، ثم أغمض عيناه و بدأ برسم صورة السفاح في ذهنه الى أن غلبه النوم.ماإن غفا حتى تجسد السفاح أمامه، وقال مزمجرا وشرارات الغضب تتطاير من عينيه:

-أنت من رفضت الصلاة علي، ليتني أستطيع الرجوع إلى عالمكم فأُزهق روحك..

فأجابه الراهب:

-لقد دخلت الى عالمكم، و لم أعد الراهب الذي كنت تعرف، وهذا تعهد بالدم بأنني لن أتراجع..لقد اخترتك

ان تكون حارسي في هذا العالم لتبعد عني أذى العالم الآخر..

استفاق فجاة و الليل في منتصفه فلم يجد أثرا للموتى من حوله، ويبدو انه نجح في ترويضهم..

واصل الراهب حياته بصفة عادية فكان يجتمع بالناس في الكنيسةو يؤدي الصلوات ويقيم العزاء للموتى فقد

أخبره الباب الثالث في الكتاب أن دخوله إلى عالم الأرواح لايجب ان يبعده عن عالمه الحقيقي، فهما عالمان غير منفصلان والهدف الأسمى للسحر الاسود هو السيطرة على عالم المادة.

يقول الكتاب بعد ذلك"بعد أن روضت أرواح الموتى يجب أن تسخر عالم الحيوان إلى صالحك ..إنهم أقوام يتواصلون كما يتواصل البشر ويتكلمون كما يتكلم البشر لذلك وجب عليك أن تنزع قلب كل حيوان لديك وهو حي، فتصعد روحه إلى السماء غاضبة منك لكن عندما تجد لك حراسا في عالم الارواح تنصاع لك فلا ترفض لك طلبا".

جلب الراهب قطته الصغيرة وبعد أن قام بتوثيقها غرس في صدرها سكينا و انتزع قلبها غير عابئ بموائها، ثم أعاد نفس العملية مع كل الحيوانات التي يملكها بقلب أشد قسوة من الحديد ..ارتقى الراهب بعدها درجة أخرى من

درجات السحر الأسود.. يقول الكتاب "تمتلك في هذه المرحلة درجة

معتبرة تمكنك من استنباط كنوز الارض، ذلك أن أسلافكم أثناء الحروب خبؤوا كنوزهم في باطن الأرض مخافة أن ينهبها أعداء الإنس والجان و البعض منهم صادق على تعاليم السحر العظيم، فنحتوا بمباركة الشيطان الأعظم على صخور الجبال رموزا مختلفة، كل رمز يرشدك إلى شيء ما مدفون بالقرب من الصخرة المنحوتة فابحث عن رمز السلحفاة ستجد إلى جانبه سهم يرشدك الى مدرج حجري على بعد ثلاث أمتار من الصخرة، وسوف تكتشف هذا المدرج إن قمت بالحفر في المكان المحدد.واصل الحفر إلى أن تصل آخرالمدرج عندها ستجد جرة ملأى بالذهب والألماس.قد تجد رموزا أخرى لحيوانات فيرشدك العضو الصلب في الحيوان إلى مكان الكنز، فاتبع منقار العصفور وقرني الثور واحذررمز العنكبوت وإياك أن تقربه فقد سُلط عليه جان ليحرسه ولا قبل لك بمقارعة الجان في هذه المرحلة".

مشّط الراهب الغابات واستخرج ما يمكن استخراجه من كنوز متقيدا بتعاليم السحر الأسود فامتلك ثروة هائلة..وذاع صيته في الشرق والغرب...وتحول الراهب القديس إلى ساحر غليظ القلب يسخر الأرواح كما يشاء يأتونهبأخبار الناس وبأدق أسرارهم، وإذا أراد بأحدهم شرا أرسلهم إليه فيميتونه فزعا، فتحول القديس إلى قاتل وهو لم ينه بعدالباب الأخير من السحر الأسود...و يقول الكتاب :

"أنت الآن تتوسط العالمين وما عليك سوى أن تسخر قوى الطبيعة لأجلك حتى تستطيع مقارعة عالم الجن والتغلغل فيه... إنهم يراقبونك الآن وينتظر أخيارهم أول فرصة للانقضاض عليك.. فهل ستترك لهم المجال لذلك؟إلاهك منحك القوة فعظمه يزدك عظمة.. أنت الآن إلاه على البشر ..حياتهم بيديك و موتهم بيديك، فسخرهم للسيطرة على الطبيعة ..خذ حياة فتاة عذراء فتسيطر

على غرائزهم، فهم يعبدونها عندها تسيرهم كالقطيع، ثم خذ حياة طفل رضيع فتمتلك أعمارهم و قوة شبابهم بعد ذلك يجب أن تمضي على الميثاق العظيم بدمائهما الطاهرة ..سوف تجد هذا الميثاق مرسوما في آخر الكتاب ..وكلما استحضرت هذا الميثاق في قلبك ووضعت يدك اليمنى على كتف أي جنس بشري سوف تجده طوع أمرك..بعد ذلك اخرج قلب

الفتاة العذراء من جسدها و القه في البحر فتسخر الرياح و الامواج والاعاصير لخدمتك، ثم أخرج قلب الرضيع من جسده وادفنه تحت التراب فتسخر الزلازل و البراكين لخدمتك".

بسرعة فتح الراهب الكتاب من آخره.الرمز الذي يجسد الميثاق العظيم للسحر الأسود هو عبارة على تنين ينفث لهبا على شكل دائري متقطع، كل قطعة لهب تمثل رأس شيطان بداخل الشكل الدائري الأول شكل دائري ثان يتشكل

من جماجم بشرية، بداخله كذلك شكل دائري ثالث يتشكل من جماجم لرؤوس حيوانات مختلفة، يتوسط الدوائر الثلاث هرم تتوسطه كذلك عين الشيطان الأكبر...

كثيرا ما صادف الراهب في الطريق إلى الكنيسة فتاة متشردة برفقة أخيها الرضيع، فلما لا يستدرجها

ويأخذها إلى العالم الآخر علها تجد هناك أفضل من بؤسها الذي هي فيه الآن.. هكذا حدثته نفسه وأقنعه عقله بذلك فاستراح لهذا الأمر.

كان يجب عليه أن ينهي مهمته ليرتقي درجة أخرى في عالم السحر الأسود. خرج يوم الأحد من الكنيسة بعد الصلاة يجر قميصه الأسود الداكن، واقترب من الفتاة مخاطبا:

_الرب حدثني بأنك ضيفتي هذا المساء تتخلصين بعدها من الشقاء الذي أنت عليه.

_شكرا لك أيها الراهب.

أجابته الفتاة و الغبطة تعلو محياها فلم يعتريها أي شك بأن هذا الراهب الورع يُضمر لها شرا.تبعته بخطى متثاقلة حاملة أخاها الصغير بين يديها.ما إن دخلت المنزل حتى فاجأها بضربة على مؤخرة رأسها مستعملا في ذلك فأسه الحاد، فسقطت جثة هامدة و سقط الرضيع على القاعة باكيا فأردفه بضربة أخرى تناثرت منها جمجمته أشلاء، و انتزع بعدها قلبيهما ثم ألقى بجثتيهما في نار المدفأة.فتح الكتاب ثم مسح بقلبي الفتاة و الصبي صورة الميثاق العظيم، ثم رمى بقلب الفتاة في البحر و دفن قلب الرضيع.فامتلك الراهب منذ تلك اللحظة حواس الإنسان وشبابه.. يسيرها كيف ما يشاءتحت حماية الأرواح الشريرة فأصبح لديه قوة ما بعدها قوة واقترب أكثر وأكثر إلى مرتبة الشيطان الأعظم. إنه جاهز الآن للدخول إلى عالم الجان و السيطرة عليه غير عابئ بشيء، فقلبه كلما ارتقى درجة ازداد قساوة...عاش بعدها الراهب حياة لم يعشها أعظم الملوك إذ تأتيه ملذات الدنيا طوعا أو كراهية ..لا يزال في الكتاب باب آخر يجب ان ينهيه ليزداد قوة وجبروتا.

يقول الكتاب في بابه الخامس"الآن وقد اقتربت من رتبة عظيم السحرة لا بد أن تغزو عالم الجان لتنال

مرادك لذلك يجب ان تسافر .الدواب مسخرات بأمرك تستطيع الذهاب أينما تشاء..قوم الجان يجتمعون كل رأس سنة لتقريرمصير العالم في جزيرة تقع في قلب المحيط يسميها البشر'مثلث برمودا' .يجب أن تذهب إليهم في ذلك الوقت فتستعرض بعض قوتك حتى يخشاك الجميع.إنهم قوم لا تغيب عنهم شاردة ولا

واردة..

لا بد أنهم بانتظارك.. أخيارهم أشد خطرا عليك من أشرارهم..اختر صديقك من عدوك، ولا تنسى أن

أرواح الدواب والبشر و قوى الطبيعة مسخرة لخدمتك

يجب أن تعلم أنه كلما كانت نزعة الشر بداخل

الساحر قوية كلما تعاظمت قوته .انتهى آخر باب من الكتاب و لك أن ترجع منتصرا أو مهزوما فتعود كما كنت"..

عندما قدم رأس السنة، جمع الراهب الساحر طلاسمه وأمر أضخم الطيور أن تحمله إلى جزيرة الجن مصحوبا بأكثر الأرواح شرا,فطار الوفد يطوي السماء طيا إلى أن وصل إلى جزيرة كثيفة الأشجار تتوسطها نار ضخمة، و حولها قوم الجن مجتمعون...ماإن نزل حتى صاح فيه أحدالجان الأخيار:

-أنت غير مرحب بك بيننا.إلاهك غير الإلاهنا .فأجاب الراهب بحدة:

-أنا لا أخشاكم! انظروا حولي.لقد جمعت أرواح الدواب والبشر و سخرت قوى الطبيعة تحت امرتي، وقد

جئتكم حاملا أسرار السحر الاسود في قلبي، فاحذروا غضبي!

اجتمع حول الراهب أشرار الجن بعد ان تيقنوا من قوته، بينما أعلن أخيارهم الحرب عليه وعلى أتباعه.وقف الراهب رافعا يديه إلى السماء محدقا في المحيط الكبير و صاح غاضبا"..باسم الشيطان الأعظم ,باسم الميثاق الأعظم للسحر الأسود الموقع بالدم ,باسم اشرار الجان و الأرواح الراضخة لنا..آمرك ايها المحيط أن تقضي على كل جن عاص"

فأخرج المحيط من اعماقه أمواجا كالجبال مصحوبا

برياح عاتية وأعاصير فاحاطت بالجزيرة من كل صوب، أتبعها زلزال عظيم. أخذت الطيور الراهب عاليا في السماء عندها نزلت الأمواج و الصواعق على أهل الجزيرة نزلة واحدة ارتجت لها الأرض فقضي على أكثرهم، بينما صعد آخرون إلى السماء، فإذا بالجان يتقاذفون بالشهب والنيازك والأرواح حولهم تبعد الراهب هنا و هناك من هذا اللهيب المستعر في السماء .أوشك الراهب و أتباعه على الانتصار عندها

فتحت السماء فنزل الشيطان الأعظم..قرناه في السماء ورجله فوق المحيط. لونه أسود داكن و عيناه حمراوان، وأجنحته تحجب عن الأرض ضوء الشمس، حاملا بيده عرشه العظيم...

فخر الجميع سجدا وخمدت الشهب و النيازك وتراجعت الأمواج و المحيطات.. فقال بصوت ترتعد له الفرائص"اليوم أعلن أن عرشي على هذه الجزيرة، وقد نصبت الراهب خليفة لي و ملكا عليكم.. يأتمر بأمره أهل الارض و

السماء فمن أطاع نجا ومن عصى سحقته عن بكرة أبيه"... عاد الراهب محمولا فوق أجنحة الطير، والأرواح و الجان من حوله خاضعة خانعة، فحكم الأرض مئات السنين لا يشيخ أبدا، إلى أن جاء أجله فمات بعد أن ملأ الأرض فسقا و فجورا ..

كان لا بد للشيطان الأعظم أن يعين خليفة للراهب حتى لا يخرج قوم الإنس و الجان عن طاعته ..فاختار أكثر قلب مليء بالحقد والشر وأرسل إليه تعاليم السحر

الأسود ..فلا يزال الشر موجودا مادام هذا الكتاب موجودا.....

وتتالت الأيام، ولا يزال السحر الأسود محفوظا في ذاكرة الأرض، فكلما مات زعيم السحر عين الشيطان زعيما آخر..

ومر ذات يوم صبي صغير بالقرب من الكنيسة التي كان يقطنها الراهب.. وكانت متهاوية قد نال منها الزمن فتآكل سقفها وجدرانها..وكان الصغير يلعب بعربته الصغيرة ..وتوغل داخل الكنيسةالعتيقة، وأعجب بالنقوشات الغريبة على سقفها و اللوحات الزيتية التي لازالت تزين جدرانها رغم الغبار والحطام المتناثر من كل جانب..وتقدم الصغير يتفحص المكان بحذر..وكان الخوف قد بدأ يتسلل إليه، ورأى الفتى صندوقا من الخشب في آخر القاعة بجوار الكراسي المتكسرة، وكان يشبه التابوت لكنه مزخرف زخرفة لم يرى لها مثيلا، فنفض الغبار عنه، وحاول فتحه، ولكن خشبه كان ثقيلا على جثته الصغيرة..وكان الصبي يود أن يكتشف ما بداخله، وأصر على فتح التابوت العجيب، وظل يتفحصه إلى أن رأى قفلا بإحدى أطرافه، وهتف في نفسه:

_لا بد أن لهذا القفل مفتاح ما...لا بد لي أن أجده..

وظل الصغير يمشط أركان الكنيسة العتيقة باحثا عن المفتاح حتى اعتراه اليأس، وقرر العودة إلى منزله فالشمس أوشكت على الغروب..ووعندما هم بالخروج من حطام الباب، تعثر في شيء ما ملقى على الأرض، فسقط وأغمي عليه.. وبعد مدة فتح المسكين عيناه، وكانت الظلمة قد اكتسحت الأرجاء، فارتعدت فرائصه، وتحسس المكان بأصابعه المرتعشة..وفجأة وجد مفتاحا حديديا، فقال:

_لا بد أنه مفتاح القفل الموجود بالصندوق الخشبي..لما لا أحاول فتحه..

ورجع الفتى الفضولي أدراجه وسط الظلمةالحالكة، وتحسس القفل، ثم قام بفتحه..

وفي برهة من الزمن، انفجر نور عظيم من داخل الصندوق، فهوى الصبي على الأرض مذهولا... لا يصدق ما يرى، وخرج من التابوت، راهب يرتدي عباءة سوداء، وكان النور يتطاير من عينيه الحمراويتين، وكاد قلب الصبي يقف من هول ما رأى، وزمجر الراهب قائلا :

_لقد أعتقت روحي أيها الكائن، بعد أن حبسني الشيطان الأعظم في هذا القبو، فذلك اللعين قد خاف من أن أصل إلى مرتبته فأنتزع ملكه، وها إني عدت لأقضي عليه، فأنا الراهب الأعظم، وإن لي من القوة ما يضاعف قوة الشيطان، فالسحر الأسود صعد مع روحي إلى السماء بعد موتي..

وبعد أن أتم كلماته هوى على الصبي فأرداه قتيلا، ثم طار بعيدا يمشط السماوات بحثا عن الشيطان الأعظم...

الأحدب اللقيط

...كان أشد الناس بؤسا، وكانت قد لزمته عاهة منذ خلق، فكان محدب الظهر، أعرج المشية وكأن القدر اختار أن يعاقبه منذ أيامه الأولى، وكان قد تربى في ملجئ للأيتام وقد سمع أن أحد المارة وجده ملقى في مصب للفضلات، ولذلك كانوا يسمونه'الأحدب اللقيط'، وظل عار والديه الحقيقين يلازمه طوال حياته..

وكان لا بد له أن يجد مأوى بعد أن قرر الملجأ التخلي عنه، فقد تجاوز السن الأقصى منذ سنوات..وكان يتسكع بين القرى القريبة من الملجأ، فهو لا يعلم لحد تلك اللحظة بأن العالم أكثر شساعة من المأوى..وصادف أن مر بأحد المزارع، فقال:

-لا بد أن أجد هنا بعض فضلات الطعام..سوف أقضي ليلتي هنا..في خم الدجاج، إنه بأي حال أفضل من النوم في العراء..

ولم يجده شيئا في الخم، ولم يستطع التوغل أكثر خوفا من كلاب الحراسة، وكان يبتلع لعابه الجاف ويضغط على بطنه لعلها تخفف عنه ألمها، ويتوسد الأحدب اللقيط كومة القش، ويظل يقاوم جوعه حتى يرسل الفجر خيوطه الأولى ويكون الأرق والجوع قد فتك بآخر جهد له، فينهار ويتثاقل ويسقط.. ثم يدخل في غيبوبة قاتلة...

وفي الصباح الباكر، خرج صاحب المزرعة، ووجد الأحدب اللقيط يغط في نوم عميق فوق القش، ويصيح مذعورا:

_ماذا تفعل هنا أيها الغريب؟!!الص..لص أدركوني..

وكان الأحدب اللقيط لا يقوى حتى على الكلام من شدة الجوع والعطش فيقول:

-اممم..جا...ئ..ع..

وينهال عليه صاحب المزرعة ضربا بالرفش، ويلتحق به أفراد عائلته فيشبعه الجميع ضربا وركلا، وكان الأحدب ينزف ويذرف الدموع، وكان يحاول الصياح فلا يستطيع، وأغمي عليه فحمله اثنان منهم وألقيا به على حافة الطريق..

وتمر الساعات بتؤدة، والأحدب اللقيط بين الموت والحياة، يفترش الأرض الملطخة بدمائه..

وتمر في آخر المساء إحدى سيارات الشرطة، وكان يقودها شرطي في الأربعينيات من عمره صحبة مرافقه الشاب..

وينزل الشرطي مختالا، ويقول:

-لا بد أن سيارة قد صدمت هذا المتسول..

ويرد عليه الشاب متثائبا:

_نعم إنه متسول، شاهدته يجول في الأرجاء..لقد ازداد عددهم..إنه لشيء مقرف..

-إن المستوصف في طريقنا..فلنحمله معنا..

ويحمل الشرطيان الأحدب اللقيط، وكان يئن واللعاب يتطاير من فمه، فيشيح الشرطي الأربعيني

بوجه عنه ويغمض الآخر عينيه، ويلقيان به في السيارة من الخلف..

وكان الأربعيني يقود السيارة بسرعة بين الطرقات الريفية الملتوية، وكانت نسمات المساء العليلة تخترق زجاجة النافذة فتنعش الراكبين، ويتثاقل رأس السائق فتأخذه غفوة..ويستفيق فجأة على صدى صدمة قوية، وينزل الاثنان مذعورين، بينما لا يشعرالأحدب اللقيط بشيء .. لقد صدم الشرطي الأربعيني دراجة، وكان راكبها يتخبط في بركة من الدماء، ويتقدم الاثنان بخوف، ويتحسس أحدهما نبضات قلبه، ويصيح:

-يا للهول!!..لقد فارق الحياة!!

فيجيب الآخر وهو يتصبب عرقا:

_لقد هلكنا!..ما عسانا نفعل؟؟

يتحسس الشرطي الأربعيني ذقنه ثم يقول:

-لسنا نحن من فعل هذا!..إن الأحدب هو من تشاجر معه..

ويومئ رفيقه برأسه، ويسارع الاثنان بإخراج الأحدب اللقيط من السيارة، والقائه فوق الجثة، وكان الأخير لا يدرك ما يجري حوله..وكان الشرطيان قد قررا الهروب بعد أن طمسا كل آثار الحادث...

وكان الأحدب لا يزال يئن من الألم والجوع..وبلج فجر يوم جديد، وكانت الأوجاع قد بدأت تخف ففتح عينيه، ولم يعلم في أي مكان هو..

لقد كان في غرفة محاطة بقضبان من الحديد، وكان يشاهد خلف هاته القضبان حشودا من الناس جالسين على كراسيهم الخشبية، وكانوا يتقاذفونه بنظرات الازدراء..وكان يتقدمهم شخص ما يرتدي لباسا غريبا، وكان كرسيه أعلى من الجميع، وكان يوجه الخطاب له ويقول:

_قف أيها المتهم، هل تعترف بجريمتك؟؟..

ويجاهد الأحدب اللقيط ليتكلم، ويقول:

_نعم..نعم فعلت..لم أجد أين أنام..لم أجد ما آكل..

ويتوجه الشخص صاحب الرداء الغريب بالخطاب لمرافقه، ويقول:

_يعترف المتهم بمانسب إليه، وطبقا لذلك يحكم عليه بالسجن مدى الحياة..

ويتقدم شرطي من الغرفة الحديدية، ويقيده، ثم يقوم باخراجه أمام حشود الناس الشامته، وهو شارد الذهن يتأمل المكان الغريب لا يعلم إلى أين يأخذه الشرطي..

وتتالى الأيام والأحدب اللقيط لا يرى من العالم سوى جدران زنزانته، وهو لا يعلم حتى أنه مسجون وسيقضي ما تبقي من ردهات حياته في ذلك المكان التعيس..

وذات مساء دخل عليه السجان، وتأمل في وجهه الشاحب مليا، وقال:

-قف أيها السجين...لقد تقرر تحويلك إلى من السجن الانفرادي إلى زنزانة أخرى وذلك لحسن سلوكك، وبامكانك التواصل مع السجناء الآخرين..

ولم يفهم الأحدب اللقيط عما يتحدث ولكنه أجابه بصوت متقطع:

-ن..ع..م..حا..ضر.

واقتاده السجان إلى غرفة أخرى، وكانت أكثر راحة من سابقتها، وكانت أسرة السجناء مصطفة بعضا فوق بعض...وكان الجميع يتحاشى الحديث معه، وكانوا يتهامسون فيما بينهم:

-هذا هو الأحدب اللقيط...يقال أنه هشم رأس ضحيته تهشيما ونام فوق الجثة حتى الصباح..

- آوه يا إلاهي..؟!!ماهذا المتوحش!؟؟

- ويقال أنه شرب من دم ضحيته كذلك!!!

وقضى الأحدب ليلته الأولى لا يكلمه أحد، وفي الصباح كان يتناول الإفطار وحيدا، ويخرج للساحة الخارجية معهم، وكان يتخذ له مقعدا بجانب السياج، وكان يتأمل الجدار الشائك المحيط بالمكان، وكان يشعر أنه قد عاد إلى دار الأيتام من جديد فالنظام هناك من أسرة متراصة وطوابير الطعام أشبه بما عاشه في صباه، وكان قد سر لنمط حياته الجديد فهو على الأقل يجد ما يأكله ولا يبات تحت العراء..وذات صباح استفاق على صوت ضوضاء كبيرة، وكانت معركة شاحنة قد نشبت بين سجناء حاولوا الهروب والحراس المسلحين، وكانت أصوات الرصاص والصراخ والعويل تملأ المكان، وكان يشاهد الفوضى العارمة ولا يبرح فراشه، وتقدم نحوه سجين راكضا وهو يصيح:

-اهرب!!..اهرب.. لقد فتح الباب الخارجي..الفرصة أمامنا سانحة قبل أن تأتي التعزيزات..

ويتبعه الأحدب اللقيط، وكان المكان قد طغى عليه اللون الأحمر القاتم، ويتوغل بين الجثث الملقاة هنا وهناك وهو فاتح ثغره لهول ما رأى..

ويصل إلى الباب الخارجي الذي كان مفتوحا على مصراعيه..وكان العالم خلف الباب يبدو مختلفا..

..فهو لم يعتد رؤية بنايات بتلك الضخامة، وكانت قد جلبت انتباه الأحدب اللقيط عمارة شاهقة..قد يفوق علوها دار الأيتام بعشر أضعاف، وحتى السيارات

كانت كثيفة وأكثر جمالا من السيارات التي شاهدها في القرى المحيطة بالدار.. حتى الأشجار والأزهار التي تزين حافة الطريق..لم ير قط أبهى منها..ويطلق الأحدب اللقيط ابتسامة رقيقة..خرجت من أعماقه.. ويظل يمشي ويسرع في مشيته رغم العرج الذي يكبل تحركاته، فقد كان متشوقا لرؤية المزيد من أسرار هذا العالم الجديد..وينغص سعادته صوت صافرات قوية و كان أحدهم يقول:

_قف أيها الأحدب..وإلا سنطلق الرصاص..

ويلتفت إلى الوراء، وكانت هناك سيارات تشع فوقها ألوان زاهية، تملأ المكان، وقد سحر الأحدب اللقيط بمنظرها الرائع، وواصل طريقه..ويسقط فجأة فوق سيل من الدماء، والألم يقطع جسده المنهك حتى أنه أعظم من ألم الجوع..ويغمض عينيه وكان آخر شيء سمعه صوت مفرقعات غريبة ..

جريمة أم خيال

الوجع..الألم...الذكريات القاسية...التقت كل هذه المشاعر فوق جبال من الأوراق المبعثرة هنا وهناك على أطراف طاولة خشبية قديمة ..وكان يجثم بجانب تلك الطاولة، جسد منهك، يحاول لملمة المشاعر وتجميعها في سجن الأوراق المتناثرة..وتتساقط قطرات الندى من السقف المشقق ويحتضنها الحبر فتصير الكلمات ظلاما أسودا داكنا...

فينتفض قاسم صاحب الواحد والخمسين سنة ويرسل لسقف الغرفة نظرة شريرة.. حاقدة، وكأنه مسؤول عن كل معاناته طيلة العقدين الأخيرين..ويغدق عليه قلبه المحزون بنوبة من الذكريات فتنفجر أسارير وجهه هما و حزنا..وتمطر عليه عيناه الذابلتان بوابل من الدموع...ويرتمي في حضن فراشه ليمسح الأسى فوق مخدته الصوفية الناعمة..وبعد أن بدأ الكرى يتسرب بين فراغات حاجبيه، وانطفأت عيناه رويدا..رويدا..وإذا به يسمع صوتا ما..وكان صوتا مألوفا..

_قاسم!!..يا قاسم!!..هلا استيقظت!!.لقد تأخر الوقت!!.

ويستيقظ متثاقلا، وينظر إلى المكان وكأنه يراه لأول مرة..ويقول:

_آه..أوراقي..لقد كنت أراجع ملفاتا مهمة ليلة البارحة..لا لقد كنت أكتب مذكراتي ..آه..رأسي يؤلمني..هل أتممت عملي؟؟..لا أتذكر!!..

ويقف مسرعا بإتجاه الطاولة المنتصبة في طرف الغرفة، وكان ينظر يمنة ويسرة، ويتفحص المكان فلا يجد أوراقه، فيقول:

_أين وضعت تلك الأوراق اللعينة؟؟..نعم الحبر .لقد اتسخت بالحبر..ربما قمت بتمزيقها أو ربما سقطت تحت الطاولة!!

ويظل يبحث هنا وهناك مفتشا كامل أرجاء الغرفة ولكنه لا يجد شيئا... ويقاطع خلوته ذلك الصوت من جديد..

_يا قاسم لقد أعددت لك فطورالصباح..أسرع..تأخر الوقت..

_حسنا!!..حسنا !..أنا قادم..ولكن أين وضعت تلك الأوراق..سأبحث عنها عندما أعود في المساء...

ويدلف المطبخ متعجلا، ولا يجد فطوره فيخاطب نفسه:

_أوه..يا إلاهي..ولكن ما خطب زوجتي لقد أخبرتني بأنها أعدت الوجبة...لا بد أنها خرجت للعمل الآن ونسيت اعدادها.. حسنا، سأعد كوبا من القهوة على عجل..

ويخرج قاسم من المنزل، فتستقبله الضوضاء وحشود السيارات فتزيد من ألم رأسه..ويقف في مكانه، ويضع كفه على مقدمة رأسه ثم يواصل سيره نحو سيارته القابعة في طرف الشارع المحاذي لمنزله، وكان المترجلون يحدقون به فيضايقه ذلك، ويهتف في نفسه:

_ما خطب هؤلاء!لماذا يحدقون بي !!هل هذه مخلفات الشهرة!!!طبعاً .. طبعاً لقد صممت معظم معالم هذه المدينة بنفسي..وأخذ مني ذلك جل ردهات عمري!!..

يضع المفتاح في فوهة باب السيارة، لكنه لا يفتح فيحاول مرارا وتكرارا.. فيغضب المهندس غضبا شديدا، ويواصل طريقه نحو مكتبه مترجلا وهو يزمجر غاضبا:

_أي لعنة هذه!! لا أجد أوراقي ولا فطوري و باب السيارة لا تفتح، ثم...

يحدق ملياً في أحد المارة، ويصيح:

_ماذا تريد ؟!! لماذا تنظر الي هكذا..لماذا تحدقون بي؟؟ !!!..آه..رأسي!!!

وما إن يدلف إلى مكتبه حتى يلقي بنفسه فوق كرسيه وهو يئن من شدة التعب..وتأتي خلفه السكرتيرة مهرولة، وهي تقول:

_سيد قاسم..سيد قاسم..إنك..

_ما بك أنت الأخرى؟!!

_إنك..

_هيا تكلمي...يكفيني ما أضعت من وقت هذا الصباح..تكلمي..

_إنك ترتدي..ترتدي بدلة النوم..

وينتفض قاسم من مكانه وينظر إلى جسده المنهك، ويتحسس ملابسه، ولا يصدق أنه لم يغير ثيابه، ويمسك رأسه ثم يسقط أرضا وهو يتضور من شدة الألم قبل أن يغمى عليه والسكرتيرة بجانبه تحاول تهدئته دون جدوى...

بعد مدة ..يستفيق المهندس قاسم، فيتأمل المكان..إنه ليس منزله فالسرير مختلف والأثاث مختلف.. حتى أنه لم يجد لا طاولته الخشبية ولا أوراقه..لقد كان كل شيء مغايرا، و كانت أشعة الشمس المتسربة من زجاج النافذة تطوق المكان فتجعل الرؤية صعبة، فيضع كف يده على حاجبيه وينهض متثاقلا..ويسير بإتجاه النافذة ثم ينزل الستائر وإذا به يشاهد زوجته تجلس مبتسمة على طرف السرير..ويرتاح قاسم لوجودها ثم يقول:

_آه..لم أنتبه لوجودك يا سارة..أرجو أنك بخير..ما هذا المكان الغريب؟انها

ليست غرفتنا..

وتظل الزوجة صامتة وهي تحدق به وتبتسم..فيلقي قاسم بنفسه فوق السرير وهو يتمتم:

_أنت قليلة الكلام كعادتك..حسنا..حسنا..أشعر بدوار وكأني أحمل جبلا فوق رأسي..سأغفو قليلا..

وقبل أن يغمض عينيه فتح الباب ودلف رجل في منتصف العمر، وكان يبدو من ملابسه أنه طبيب، ويتقدم من قاسم الذي انتبه لوجوده ..ثم يقول:

_يبدو أنك أفقت من غيبوبتك يا سيد قاسم.أنت الآن في مصحة خاصة، وسوف نشرف على علاجك، وستكون بخير ان شاء الله..

_ولكن لدي الكثير من العمل، أريد أن أغادر هذا المكان..ما الذي جرى لي ..أخرجوني من هنا..انه أشبه بالسجن..أخرجوني..

ثم يدخل في نوبة حادة من البكاء والعويل، وكان يتصبب عرقا ويقطع ملابسه، وكان الطبيب يحاول أن يخزه بحقنة مهدئةوهو ينادي الممرضة:

_مايا!..مايا..تعالي ساعديني..ان المريض في حالة حرجة!!

وكان يضغط على زر الانذار، وأدركته الممرضة مسرعة، وكانت تحاول أن تثبت قاسم في مكانه، وسارع الطبيب بحقنة فبدأ يهدأ، وكان المهندس وهو على مشارف الغيبوبة يسمع صوتا أنثويا يقول:

_يبدو أن حالته تتعكر أيها الطبيب فبعد أن بدأت ذاكرته تمحي رويدا رويدا حتى أنه نسي أن يرتدي ثيابه قبل الذهاب إلى العمل، هاهو اليوم يمر الى مرحلة العنف..

_فعلا تشخيص صحيح، ان الشيء المثيرللقلق هو عدم تفريقه بين ممتلكاته الخاصة وممتلكات غيره كما فعل عندما حاول فتح سيارة جار له..هذا مؤشر خطير..كما أن الصراخ وتقطيع الثياب هو نتيجة لعدم سيطرته على مداركه العقلية..

وكان قاسم يستمع للحوار، ويحاول أن يتكلم، لكن تأثير المخدر كان قويا، فيهتف في نفسه:

_أنا لست مجنونا..أنا لست مجنونا..سارة أخرجيني من هنا!!

كانت قطع الظلام تتلاشى من أمام عينيه، وكان بصيص من النور يخترق السواد المطبق حوله، ويفتح قاسم عينيه رويدا..رويدا، فوجد الممرضة واقفة أمامه بوجهها البشوش، ويبتسم قاسم ويقول:

_عذرا على الازعاج الذي تسببت به...انني أشعر بتحسن كبير..

_لا داعي للاعتذار سيد قاسم!..هذه مهنتنا..

وبعد أسبوع لم يصدر من المريض أي تصرف يدعو للريبة، فيقرر الطبيب اخراجه و مراقبة تطور حالته، وكان نصحه بعدم مباشرة العمل..

وكانت الممرضة مايا قد اصطحبته لمنزله، ويدلف قاسم منزله الذي اشتاق إليه وعلامات الغبطة بادية على محياه، ويقول:

_سارة..يا سارة..لقد عدت..أرجو أن تحسني استقبال ضيفتنا، فقد اعتنت بي كما يجب في المصحة..

وتنظر إليه الممرضة نظرة استغراب وشفقة، وتربت على كتفه ثم تقول:

_لكن زوجتك متوفاة منذ عشرين سنة في حادث مرور..لا ترهق نفسك بهذه

الذكريات فتزيد حالتك سوءا..ان من واجبي أن أعيدك للمصحة، فأوامر الدكتور تنص على أن تباشر العلاج من جديد إذا لاحظت أي مؤشر سلبي..

_زوجتي لم تمت، انها توقظني كل صباح، كما أنها زارتني في المصحة..انني لن أعود لذلك السجن..ابتعدي عني!!..

ويركض مسرعا نحو المطبخ، ويتنفس الصعداء عندما يجد زوجته تقطع الخضار، فتبتسم له كعادتها أن تفعل كلما يعود متعبا من العمل، ويهدأ قاسم بعدما أزعجته الممرضة بكلامها القاسي، ويقترب من زوجته وينزع السكين من يدها ثم يحتضنها بكل قوة ليطفئ نار الشوق التي اجتاحت كيانه، ويشعر بشيء ما يسيل من بين طيات ثيابها، وينظر إلى كفيه..لقد كانت ملطختين بالدماء فيظل واقفا في مكانه وقد اعترته مشاعر الخوف والدهشة، ثم يتقدم من زوجته وكان أثر جرح عميق باديا على بطنها، فيضع يده على الجرح محاولا إيقاف تدفق الدماء وهو يصرخ:

_أدركوني!..زوجتي تموت..لقد جرحت نفسها خطأ بسكين الخضار..

ووقع الاثنان أرضا، وكانت تفقد الوعي، وهو يحاول يائسا انقاذها، ويخرج من المنزل مسرعا طلبا للنجدة، وكان يلوح للسيارات والمترجلين بيده ولكنهم يتجاهلونه بل انهم يفزعون منه فقد كانت الدماء تلطخ كامل جسده...

وبعد أن يئس من ايجاد المساعدة، رجع مسرعا ليطمئن على زوجته وهو يفتش جيب سرواله لعله يجد هاتفه..وكانت المرأة ملقاة على الأرض فارتمى عليها ثانية يحاول وقف النزيف بيده، وكانت تلفظ أنفاسها الأخيرة قبل أن تشهق شهقة مرعبة وتشرئب عيناها الى السماء..وكاد قلب قاسم أن يتوقف بعد أن أدرك أن الأوان قد فات، ثم دخل في نوبة هستيرية من البكاء والصراخ..

وبعد مدة قصيرة حلت سيارات الشرطة والاسعاف وكانت تحيط بالمنزل، وكان الطاقم الطبي يحمل جثة المرأة بينما أخرج أفراد الشرطة المهندس قاسم وهو مكبل الأوثاق وكانوا يقتادونه معهم محاولين ابعاد الفضوليين عن المكان...وكانت تتردد كلمات بين صفوف الحشود.."لقد قتل هذا المهندس المجنون الممرضة مايا التي كانت تشرف على علاجه..يالها من مسكينة"...

ويحاكم قاسم للجرم الذي ارتكبه، وتدينه المحكمة بتهمة القتل المتعمد وعقوبتها عشرون سنة سجنا، وكان قد قضى نصف الفترة بين السجن والمستشفى ثم أطلق سراحه لحسن السلوك...ويعود قاسم لبيته، وكان يفتح الباب بيدين مرتعشتين أنهكتهما السنين كما فعلت بوجهه الذي طغى عليه الشحوب وأخاديد من التجاعيد ..ويدلف منزله، ثم يبتسم، وكان قد

نسي كيفية الابتسام بعد أن غابت عن محياه منذ عشر سنوات..وينثر عن معطفه غبار السجن، ثم يقول:

_مرحبا بك يا سارة...

لعنة

يوم صيفي شديد الحر..أشتات سحب متناثرة في السماء...والعشب مصفر من شدة القيض..والغابة بأشجارها الصامتة، تقف شامخة، بالرغم من النسمات الحارة التي تملأ المكان.

بين الأشجار، يسير صياد متوسط القامة، في الثلاثين من عمره، في قميص وبنطال طغت عليهما الخضرةوحذاء أسود كبير.يسير في حذر بخطوات بطيئة، ويمسك في يده بندقية مرفوعة الزناد، ومن كتفه يتدلى كيس جلدي، يأمل أن يملأه بأرنب بري، ويظل يمشط أرجاء الغابة ممعنا النظر في كلبه الذي يسير أمامه متشمما الأحراش عله يعينه في الظفر بأي كائن حي.

وفجأة يسمع صوت حشرجة بين الأشجار، ويتقدم كلبه أولا بينما يظل ينتظره وقد صوب بندقيته باتجاه المكان الذي صدر منه الصوت، ويمزق سكون الغابة صراخ الكلب تبعته ضجة كبيرة بين الأغصان قبل أن يعود المكان إلى هدوئه..

وانتفض الصياد من مكانه مذعورا، وكان يتوغل بين الأغصان المتراصة، وفجأة يتوقف وقد استرع انتباهه بقع من الدماء بعضها على الأغصان و أخرى متناثرة بين الأعشاب، فتتبع آثار الدماء، ويتوقف وقد علت محياه علامات الصدمة والذهول...كلبه غارق في بركة من الدماء وقد فصل رأسه عن جسده، فانتابته نوبة من الحزن والهلع، وإذا به يجري هنا وهناك مطلقا الرصاص في كل الاتجاهات، ويصرخ باكيا:

_يا الله!!...من فعل هذا بكلبي المسكين؟؟؟.

وبعدأن هدأ، يذهب ليواري جسد كلبه التراب، ولا يجد لرأسه أي أثر، فيزداد حيرة وتوترا، وبعد أن دفن كلبه، يواصل سيره شارد الذهن...وكان المساء قد حل، فينصب خيمته قبل يكتسح الظلام المكان .. ومن شدة التعب والألم، يذهب للنوم على بطن خاوية، وما إن أخذته غفوة يأتيه كلبه في المنام فيقول:_مرحبا بك أيها الصديق القديم ..

_كم أسعدتني رؤيتك!...ما الذي حل بك يا صغيري؟..

فيصمت الكلب لبرهة، ثم يقول:

_لقد أخذ الشيطان رأسي لكهف ليس بالبعيد عنك، فأعده إلي وإلا سيحل بك ما حل بي...

وينتفض الصياد مذعورا، وقد أرسل الفجر خيوطه الأولى، فيرتب أغراضه على عجل، ويمشي على غير وجهة محاولا أن يستوعب ما حصل في الليلة الماضية.

وبعد أن توغل لأكثر من كيلومتر أرجاء الغابة، وجد نفسه أمام كهف مظلم يثير الرعب، فأدرك أن ما رآه تلك الليلة ليس حلما..

أشهر بندقيته، وأشعل الصباح واستجمع كل شجاعته، ثم دخل الكهف..ذهل للرسومات الغريبه التي تملأ المكان فتصبب عرقا وتسارعت دقات قلبه، وتعثر في شيء ما، فسقط المصباح من يده، فغرق المكان في ظلمة موحشة، وكادت أنفاسه أن تتوقف لولا أن نجح في اشعاله مرة أخرى..ويا ليته ما فعل، فكان قد تعثر في جمجمة بشرية، فركض من شدة الهلع، وكان كلما يتوغل في الكهف يجد جماجم أخرى، فيزداد خوفا ورعبا..ويرى في آخر الكهف بصيص نور ، فيتبعه آملا في الخروج سالما من هذا الجحيم..ويدرك فجوة تفضي إلى الغابة فتتفتح أسارير وجهه...غير أنه يرى شيئا ما مشدودا إلى حبل في أعلى الفتحة، ويدفعه فضوله

إلى جذبه....إنه كيس ملطخ بالدماء..فتحه، فإذا به يجد رأس الكلب، فيلقيه خارجا من شدة الفزع... وفي لحظات، زلزلت الأرض تحت قدميه و بدأت الصخور تتساقط هنا وهناك، وسدت كل مداخل الكهف، فسقط الصياد مغشيا عليه في ذلك القبر المظلم...هتف في نفسه قائلا:

_أي ذنب اقترفته حتى أنال هذا العقاب؟..هل لطائر الشحرور الأسود الذي اصطدته ذات يوم دخل في هذا؟..لا بد أن لعنته قد أصابتني، وما هذه الجماجم إلا لصيادين مثلي لقوا حتفهم هنا...

وكان أسلافه يعتقدون أن الشحرور الأسود طائر مقدس وهو رسول الأرواح، ويظل على حاله محبوسا بين الصخور والظلام القاتم، وتخور قواه فيقرر أن يضع حدا لمعاناته، ويقول:_أعطيك رأسي قربانا أيها الشحرور المقدس، ولك أن ترسل روحي إلى عالم أجمل.

ثم يضع فوهة البندقية على جبينه ويضغط على الزناد..

لم يسمع دوي أي رصاص، فيفتح عينيه ببطئ..لا يكاد يرى أي شيء، فيتحسس كيسه الجلدي ويخرج سكينا حادا، ويضرب عنقه غير عابئ بالألم المبرح وسيل الدماء المنهمر على جسده الوهن..وينفصل رأس عن جسده في لحظة أقسى من الموت...

ويتدحرج رأسه بين الصخور، فيسقط خارج الكهف، ويغمره النور من جديد، فيفتح عينيه ويرى زوجته جالسة بجواره والممرضة تربت على كتفه وهي تنظر إلى زوجته وتقول:

_الحمدلله ..لقد استفاق أخيرا من غيبوبته...

فتقول زوجته وهي تكفكف دموعها:

_لقد ظنننا أنه لن ينجو، فقد.دخل في غيبوبة لأكثر من شهر، منذ رجوعه من آخر رحلة صيد..

وهم أم حقيقة

كان أرنولد ينظر إلى السماء بشفقة، ويقول:

_ألم يعد باستطاعة غيومك أن تدر لبنا، خسئت أيتها الأم الظالمة، فصغار الضب تموت في جحورها..

وواصل الكهل طريقه في الصحراء، وكان يتأبط كيسه ويسرع الخطى نحو ظلال أشواك الصبار.. مزقت جلده أشعة الشمس الحارقة، فيجاهد نفسه للوصول، ثم يلقي جسده المنهك...ويسرح به الخيال بعيدا نحو مزرعته النائية في إحدى الأرياف..لقد كان مزارعا بسيطا يعيل عائلته الصغيرة من عائدات الأرض، وكان قد ضاق ذرعا من سنوات الجدب، وكان يصبو لما هو أفضل، فما عاد يحتمل هذه الحياة القاسية.

وكان عائدا ذات ليلة من المقهى، فمر قرب منزل العجوز ماتيلد التي توفيت منذ أيام قليلة، وكانت قد عاشت وحيدة في منزلها الكبير، وكانت تبدو عليها علامات الثراء...

وسمع أرنولد أثناء مروره بمنزلها أصواتا غريبة، وتقدم من باب السور، ثم أضاء المصباح اليدوي فرأى كرسي العجوز الخشبي منتصبا في الحديقة، وكان يتأرجح وكأنما شخص ما كان جالسا به منذ زمن قصير، وتعجب أرنولد ثم دخل ليستكشف الأمر وكان فضوليا لذلك قرر أن يبحث عن مصدر الصوت في هذا المنزل المهجور، وتقدم رويدا رويدا، وكان قلبه يزداد في الخفقان ...يمسك أرنولد الكرسي بيدين مرتعشتين فيتوقف عن الحراك، ويقلبه بعينيه الجاحظتين، ويتركه

ثم يستدير نحو باب المنزل فيسقط المصباح من يده ويغرق المكان في ظلمة حالكة...وكان قد قرر خلع باب المنزل وفتحه ..و بعد أن دلف إلى الداخل، لم ير شيئا من شدة الظلمة، فبحث عن فانوس أو أي شيء لإضاءة المكان...

ويعثر أرنولد على نور أخيرا، ويتفحص المكان بحذر، وعندما هم بدخول المطبخ راعه ما رأى...كانت العجوز ملقاة على ظهرها وقد غرست سكين حادة في قلبها، وكانت الدماء تملأ المكان فزادته وحشة تقشعر لها الأبدان، فارتاع المتطفل وحاول أن يرجع أدراجه ولكنه لم يستطع فتسمر في مكانه يتأمل العجوز غارقة في دمائها...واستفاق فجأة على صوت ابنته وهي تناديه من خلف الباب:

_أبي العزيز..سلم نفسك إن الشرطة تحاصر المكان..أرجوك يا أبي..

ولا يدرك أرنولد ما تقول ابنته، ويهتف في نفسه:

_عما تتحدث صغيرتي!!؟؟..انني وجدت جثة العجوز بالصدفة، فلما سأسلم نفسي؟؟!..

ويتقدم نحو الشباك، وينظر من خلف الستار، فيرى ابنته تقف باكية في المقدمة، ومن خلفها سيارات الشرطة التي تملأ المكان مطلقة صافراتها المرعبة، وحولها رجال مسلحون يتقدمون من المنزل، فينتفض مذعورا ويصيح:

_أنتم مخطؤون..أنا لم أفعل شيئا...!!

وكان يعلم أن الحل الوحيد للهروب هو عبر قنوات الصرف الصحي، فيقرر المحاولة..ويفتح الباب متظاهرا برفع يده، فتندفع ابنته إليه باكية، وتحتضنه وتقول:

_ماذا فعلت يا أبي..؟..نحن نحبك ولن نتركك..

_أنا لم أفعل شيئا ..لا أعلم عما تتحدثين..

ويقطع حديثهما صوت مكبر الصوت الخاص بالشرطة:

_سلم نفسك وإلا سنطلق الرصاص!!

ويطلق أرنولد ساقيه للريح هاربا في غفلة من الجميع، ويدلف في إحدى قنوات الصرف الصحي تاركا وراءه ابنته خلفه تنتحب..وكان قد غمر المكان وابل من الرصاص، ويظل يتوغل في ظلمات القنوات غير عابئ بالروائح الكريهةالتي تملأ المكان..إلى أن رأى بصيص نور فيتنفس الصعداء...ويقول:

_لا بد أن أحاول الخروج فلا سبيل لي بالنجاة هنا..

ويخرج من الفتحة، فيجد نفسه في محطة القطار، وينظر بحذر فيرى حشود الناس هنا وهناك، وأفراد من الشرطة يمشطون المكان..ومع وصول أول قطار يركب مسرعا، وكان الجميع يتحاشاه نظرا لرائحته الكريهة، ويسأل شيخا بجواره:

_إلى أين نحن متجهون..؟

ويستغرب الشيخ من سؤاله، ويقول:

_إنه قطار الجنوب، هل أنت تائه؟..عجيب أمركم أيها الشباب هذه الأيام.. إنكم لا تفقهون شيئا..

ويتجاهله أرنولد، وكان يمعن النظر في الساعةو دقات قلبه تنبض أكثر من عقاربها، فهو يود لو أن الزمن يتقلص، فيصل إلى الصحراء قبل أن تتفطن له الشرطة..

وكان ينظر في وجوه المسافرين بحذر، وينتقل من مقعد إلى مقعد ممعنا النظر في الباب خوفا من صعود دوريات التفتيش، وبعد ساعات من السفر

يتوقف القطار...فيهرع مسرعا متوغلا بين المنازل إلى أن ابتعد عن كل عمران، فوجد نفسه في وحشة الصحراء القاسية...

ويستفيق أرنولد من غفوته فلا يرى أمامه إلا جبالا من الرمال الشاهقةوبعض الأشواك والأحجار لترقع ذلك الجحيم الأصفر...وكانت قد نفذت مؤونته فيتحسس كيسه مرارا وتكرارا ولا يجد شيئا يسد به رمقه أو يسقي به عطشه، ويتمتم بصوت خافت:

_هل هربت من سجن الجدران إلى سجن الرمال!؟؟...يا الله ما فعلت ليحدث هذا معي؟..

ويسمع صدى صوت خلفه..

_لقد قتلتني طمعا في سرقة مدخراتي...ستكون هذه الصحراء مقبرتك أيها القاتل!..

ويلتفت مذعورا، فيرى العجوز ماتيلد خلفه ترمقه بعينين تحملان كراهية شديدة، وكانت تحمل قلبها بين يديها، والدم يتقاطر من كافة أنحاء جسدها، فوقع أرنولد أرضا من هول الصدمة شاخصا ببصره إليها، ثم استجمع ما بقي له من جهد وفر هاربا وهو يصيح:

_أنا لم أقتلك!!..ابتعد عني أيها الشبح!!..أنا لست قاتلا..أنا مزارع بسيط.. ابنتي..زوجتي أين أنتما!؟؟

ويظل يركض و يصيح، وحرارته تزداد ارتفاعا تحت الشمس الحارقة، و يقع مغشيا عليه من دون حراك..

ويفتح عينيه بعد مدة، فيجد نفسه مستلق في سرير مكبل الأوثاق، ويتقدم نحوه رجل يرتدي ميدعة بيضاء، فيضع يداه الباردتان على جبينه ويلتف وراءه

ويخاطب أحد الحراس قائلا:

_لقد انخفضت حرارته و عاد إليه وعيه، بامكانكم ارجاعه إلى زنزانته..

ثم يخرج الجميع ويغلق باب الغرفة، ويحاول أرنولد فك قيده بكل ما أوتي من قوة، ويسمع صوت العجوز ماتيلد وهي تقول:

_لن تستطيع فك القيد..لقد قتلتني وستنال جزاء فعلتك..

ويلتفت فيجدها جالسة فوق كرسيها الخشبي تتأرجح وقد علت محياها ابتسامة عريضة، فيقول:

_أنت كاذبة أنا لم أقتلك، لقد دخلت فقط لأتفقد المكان بعد سماعي أصوات غريبة

_ثم طعنتني بالسكين

_لا!!لا. لم أفعل..

_وجاهدت نفسي كي أتصل بالشرطة قبل أن ألفظ أنفاسي الأخيرة..

_أنت تكذبين وتريدين توريطي، أنا لدي عائلة علي أن أعيلها فاتركيني ..

وتخرج العجوز وهي تقهقه مرسلة إليه نظرات شامتة، ويدخل بعدها أشخاص ملثمون فيقيدونه في نفس الكرسي الخشبي للعجوز ماتيلد، ثم يضعون في يديه أسلاكا موصولة بالكهرباء، ويتقدم شخص نحوه، يبدو من ملابسه أنه راهب، ويقول:

_هل لك طلب أخير؟

أنالم أقتل أحدا؟..ماذا أنتم فاعلون بي؟..أود أن أرى ابنتي وزوجتي..

ويفتح أحدهم ستار الغرفة، فيظهر جدار من البلور خلفه حشود من الناس، ويرى زوجته وابنته في آخر القاعة تذرفان دموعا حارة، فتنزل دمعتان حارتان فوق خده..ثم يقوم أحدهم بعصب عينيه، ويظلم المكان فجأة، وكان يرى بين قطع الظلام العجوز ماتيلد وهي تتقدم نحوه وكلما تقدمت أكثر يشعر بشيء ما يتسرب بغزارة في عروقه فيرتعد من شدة الألم..ويشعر بأن ساقيه تتجمدان وتتوقف العجوز بجانبه وتمد يدها لتنتزع قلبه، ويشتد به الألم وهو يرى طيف العجوز تغادر الغرفة حاملة قلبه بيدها الملطخة بالدماء، فيظلم المكان من جديد...

ما قبل الإعدام

اقترب أجلي..فتجسد أمامي ملك الموت، وكان فارع الطول، عبوس الوجه، وكان يحمل بين جناحيه ساعة عملاقة ...اقترب مني، وكنت أرتجف من شدة الخوف، وبعد أن وضع ساعته أمامي، تحركت شفتاه العملاقتان، ثم خاطبني قائلا:

_أيها العبد..هذا ما بقي من وقتك في الدنيا..فتأمل مليا هذه

الساعة، فأيامك معدودات، وإني لعائد لأقبض روحك..

فانتابني ذعر شديد، واصفر وجهي، وجف الدم في عروقي..وقلت متلئكا:

_لكني لا أريد أن أموت الآن... أيها الملك العظيم، امنحني وقتا أطول، وسأصبح عبدا صالحا..

فتجاهل كلامي، وأشاح بوجهه المرعب عني، وكنت أتأمل الساعة، ورأيت اسمي منحوتا على أحد عقاربها، وأمنعت النظر فيها، كان قد مر على زمني أربعون عاما ويبدو أن عقرب الساعة سيتوقف في العلامة المخضبة بالأحمر والمنحوت فوقها كلمة"نهاية"...تسارعت نبضات قلبي، وتمعنت حائط الساعة، وكان قد بقي لي ثلاث أشهر وخمس أيام فقط، وكررت العد مرات ومرات، لعلني قد غفلت على بعض الأيام أوالشهور...

وسرعان ما اختفى ملك الموت من أمامي، وتركني في حيرة من أمري، وهتفت في نفسي:

_لعل الأمر أضغاث أحلام، ومايزال أمامي عمر طويل..لا ..لا يمكن، لقد

شاهدت الملك بأم عيني، وعددت أيامي المتبقية أكثر من مرة، ولمست عقارب تلك الساعة الملعونة بيداي هاتان..آه..آه..لقد انتهى كل شيء...

ومرت الأيام بسرعة، وكل يوم يضيع يقربني من القبر أكثر وأكثر..وفي ليلة من ليالي الشهر الأخير من عمري، اجتمعت بأمي وزوجتي و أخي الأصغر، وقررت مصارحتهم بما أخبرني إياه ملك الموت، وبعد أن أخرجت من صدري نفسا عميقا، قلت لهم:

_أرجو أن لا يألمكم كلامي، ولكنها حقيقة وجب عليكم تقبلها...إن الأعمار بيد الله، وقد تجسد أمامي ملك الموت، وأخبرتني ساعته بأنه لم يبقى لي من العمر الشيء الكثير..

ما إن أنهيت كلامي حتى شحب لون أمي وذهلت من هول الصدمة.

أما زوجتي فغلبتها دموعها، وانتفض أخي من مكانه، يحدق بي ، وكأنه لايريد تصديقي..

وظلوا كذلك في جو من الحيرة والكآبة، حتى اقتنعوا أخيرا بحقيقة موتي القريب...وقبل أن يدخل ثلاثتم في حزن عميق، استجمعت شجاعتي وخاطبتهم:

_هذه مشيئة الله، فلم الحزن؟..أليس من الجيد أني أخبرتكم حتى لا نباغت بالأمر، وإني لأشدكم حسرة على عمري القصير، ولكن ما باليد حيلة..

ومضى أسبوعان وأنا لا أفعل شيء سوى عد أيامي الباقية، وقد لاحظت أن تصرفات زوجتي بدأت تتغير، وكم من مرة تنسى حصتي حتى في وجبات الطعام، وكثيرا ما طرح علي أخي مواضيع تخص الإرث وأملاك العائلة، أما أمي فما عادت تذكرني حتى في دعواتها..اقتنعت حينها بأني مت بداخلهم منذ اليوم الذي أخبرتهم فيها عن قصتي مع ملك الموت، فبكوني بحرقة لأسبوع أو أسبوعان، ودفنوني

بداخلهم وما أنا اليوم بينهم إلا مجرد جسد بلا روح..وانقضى الشهر الثالث ولم يبق في عمري إلا يوم واحد..

خرجت هائما على وجهي أمشط الطرقات، وأجول ببصري في أماكن كانت لا تعني لي أي شيء، وأصبحت اليوم أطوق للمكوث فيها..جلست في محطة الحافلات، أتأمل حشود الناس متمعنا في أدق تفاصيلهم، وكنت أبتسم بين وبين نفسي وأقول:

_يبدو أن كل شيء في لحظات الوداع يصبح جميلا ولا نقوى على فراقه..

وأواصل طريقي، وأتوغل في أحد الأنهج المظلمة، وأجد شابا يجلس مطأطئا الرأس، ودموعه تتساقط أرضا...فاقتربت منه لنتابدل الحزن، و خاطبته قائلا:

_هل أن حزنك أشد حزنا من حزني أيها الفتى؟

فرفع رأسه، وكفكف دموعه، ونظر إلي باستغراب، ثم قال:

_وهل هناك حزن أشد من أن ترى ملك الموت أمامك؟

فقلت مندهشا:

_وما قصة ملك الموت معك؟

_لقد أتاني حاملا معه ساعة عمري، ولم يبق لي في هذه الحياة سوى يوم واحد..

_وهل انفض من حولك الجميع ودفنوك قبل أن تموت؟هل هذا ما يحزنك؟

_امم..نعم..نعم..هذا ما حصل..وكيف عرفت ذلك؟

_نحن في الوزر سواء، فلقد حل بي ما حل بك، ويبدو أننا سنموت سويا يا صاحبي..

أطلق الفتى ابتسامة شاحبة، ثم قال:

_يالها من مصادفة!..إذا أنت من سيصطحبي إلى القبر..

ثم لزمنا الصمت، وعقارب الساعة تدور بسرعة في يومنا الأخير، وكنا نتصبب عرقا، وقد انتاب الخوف والجزع كلينا، ومرت الدقائق ثقيلة، ولم نعد نقوى حتى على الكلام، وكنت أنظر إليه تاره وإلى ساعتي اليدوية تارة أخرى، وأهتف في نفسي:

_لقد اقترب منتصف الیل، وأشرف اليوم على الرحيل، وما من أحد سوى هذا الفتى، هل من الممكن أن يكون هو قاتلي؟..أنه هو حتما فلا أحد غيره هنا..لما لا أباغته وأقضي عليه فأنجو بنفسي..

وتمكنت مني هذه الفكرة الرهيبة، وكنت أود أن أنجو بنفسي من براثن الموت، وكنت أتحسس حجرا ملقى بجانبي، وفي لمح البصر هويت بها على رأس الفتى، فسقط مغشيا عليه، وظللت أضرب وأضرب حتى هشمت رأسه، وملأت الدماء المتناثرة أرجاء المكان ...ونظرت إلى الساعة الملطخةبالدم، إنها تشير إلى منتصف الليل، فابتسمت وقلت في نفسي:

_يبدو أني نجوت..

وعدت إلى منزلي، وألقيت بنفسي فوق السرير لأخلد للنوم بعد يوم عسير..

وعندما استفقت، وجدت نفسي في مكان غريب، كنت مفترشا الأرض في غرفة موحشة لا يوجد بها أي شيء، الباب محكم الاغلاق به فتحة صغيرة تتوسطها أعمدة من الحديد الصلب...فتملكني الرعب وصحت بأعلى صوتي:

_أين أنا؟..أخرجوني من هذا المكان الموحش ..

وفجأة فتح الباب على مصراعيه، ودلف الغرفة أشخاص مرتدين بدلات رسمية وبأيديهم أسلحة و سياط، وسمعت أحدهم يقول:

_أوثقوا هذا القاتل اللعين، وإن سمعتم صوته ثانية ألقوه في زنزانة أخرى إلى أن ينفذ عليه حكم الإعدام..

براءة باهضة الثمن

كان رياض يدقق النظر في الجثة المسجاة أمامه، ثم يلتفت لطاقم التحقيق المجتمعين خلفه، ويطلق نفسا عميقا، ثم يقول بنبرة حادة:

_من الآن أصبحت هذه قضيتي..منذ أيام كنت هنا لمد العون في قضية القتل التي جدت منذ أيام، ولكن المجرم استهدف الآن إنسانا عزيزا على قلبي وهو ما يعني أنه يستهدفني شخصيا..لذلك سأشرف بنفسي على هذه القضية..

ويقول أحدهم:

ولكن الترتيبات تقضي بأن..

فيقاطعه بنبرة أكثر حدة:

_إنها قضيتي أفهمتم!! انتهى الكلام..

ويغادر المحقق رياض المكان، وكانت تبدو عليه علامات الهم والأسى فقد هلك ابن أخته للتو..وكان قد أحيل على شرف المهنة منذ سنة، ولكن تم استدعاؤه منذ أسبوع للاستشارة في قضية قتل غامضة، و غالبا ما يتم اللجوء إليه للإستعانة بخبرته.. وقد طعنته حادثة القتل الثانية في الصميم، ولكنه لن يرمي المنديل، بل انه كان أشد اصرارا من أي وقت مضى على الوصول إلى القتلة مهما كان الثمن..

وعاد إلى بيته منهكا، و طال به السهر في تلك الليلة، وظل يتفحص ملف القضيتين وكان يشرب قهوته الدافئة...و انتفض من مكانه فجأة وهو يتمتم:

_انه نفس القاتل..نعم أنا متأكد من ذلك..

ويقوم بالاتصال بزميله مراد الذي كان يشرف معه على القضية، ويقول:

_انه نفس القاتل في القضيتين..

_وكيف عرفت ذلك؟

_عندما تأملت شاشة الهاتف الجوال لقريبي وجدت صورة نزل..وليس أي نزل..انه نفسه الذي وجدت فيه الضحية الأولى..

_ولكن هذا لا يكفي لنجزم بأنه نفس القاتل!

_وماذا اذا قلت لك أن شاشة الهاتف الجوال للضحية الأولى فيها كذلك صورة للحديقة العمومية التي عثر فيها على جثة قريبي المغدور..

_صدفة غريبة..ولكنها ليست دليلا كافيا..

_أعلم ذلك ..لكني سأجد الدليل ..ولابد أن هناك جرائم قادمة..

ويظل المحقق المتقاعد يقلب أوراقه حتى وقت متأخر من الليل آملا في أن يجد أي دليل يؤكد تخميناته ويقربه من القاتل ..

ومن الغد، بعد أن استيقظ متأخرا خرج يمشط الحديقة التي هلك فيها قريبه ويستجوب المارة، ولكن جهوده باءت هباء فلا رابط بين الجريمتين ولا أي دليل.. وقفل عائدا وكان شارد الذهن يفكر في القضيتين..ويهتف في نفسه:

_لا أشخاص يضمرون العداوة للقتيلين، لا شهود، لم يترك القاتل أي دليل ولا بصمات..

لا أثر مادي..وكأن القاتل مطلع على الطرق المتبعة للتحقيق الجنائي!!..لقد استعصت علي هذه القضية..ترى من يكون هذا اللعين..أعلم أنه نفس الشخص.. أعلم ذلك!!

وكان ذات يوم يتفحص الأرقام المسجلة في هاتف الضحية الأولى، فذهل لما وجد رقم هاتفه مسجلا ..فتتغير ملامح وجهه ويقول:

_من أين أتى برقمي؟ ..لاتربطني أي صلة به..ولكن..هل يكون القاتل هو الذي سجل الرقم..وما هدفه من وراء ذلك؟؟.هل يعبث معي؟؟

وبينما كان غارقا في متاهات من الأسئلة اذ رن هاتفه، وكان رقما غريبا..فأجاب وعلامات الحيرة بادية على محياه:

_ألو من معي..؟

_أعلم أنك شديد الذكاء، وستتوصل إلى أن نفس الشخص يقف وراء الجريمتين، وأنا هو القاتل الذي عليك الوصول اليه..

ويقهقه بسخرية، ثم يواصل :

_واني رغم كرهي الشديد لك فاني أكن لك كل الإحترام ..أنا صديق قديم جئت خصيصا لك..

وقبل أن ينبس المحقق ببنت شفة قفل المخاطب الخط، وترك رياض في حيرة و ذهول كبيرين..

وما إن استفاق من شروده حتى ازداد اصراره على الوصول إلى الجاني قبل أن يرتكب مزيدا من الجرائم..

وكان عليه تتبع مصدر المكالمة الغريبة، فأسرع لمكتب الضبط، ولكن القاتل كان أذكى من أن يقبض عليه بكل تلك السهولة، فقد فقد أي أثر للخط ولم يحدد مكانه...وكان على المحقق أن يواصل البحث عن دلائل أخرى، وتحول إلى الطبيب الشرعي صحبة زميله مراد للإطلاع على التقرير البالستي..وبعد أن اطلع المحققان

على ذلك التقرير، يقول مراد:

_غريب!! نفس سبب الوفاة في الجريمتين...جرعة زائدة من دواء للصداع.. اذا الكدمات الموجودة على جسديهما كانت من أثر السقوط على شيء حاد بعد الوفاة..وهو مايعني حتما أن الملف قفل ..لقد كانتا حادثتي انتحار..

ويحدق به رياض وشرارات الغضب تتطاير من عينيه، ويقول:

_بل كانت جريمة قتل مزدوجة!!!..وأنا أعي ما أقول، يحاول المجرم تضليلنا..لن يذهب دم قريبي هباء!!...أنا أعلم الناس بابن أختي، وانه لم يفكر قط بالانتحار..

_عموما يجب أن نبحث عن مصدر الدواء الذي أدى إلى وفاتهما حسب التقرير الطبي..

وبعد مدة من البحث والاستقصاء..تبين للمحقق المتقاعد أن القتيلين قد اقتنيا الدواء من نفس الصيدلية، وهو ماجعل صاحبها محل شبهة..فيتم استدعاؤه على جناح السرعة..

ويخاطب المحقق صاحب الصيدلية قائلا:

_لقد توفي شخصان جراء الدواء الذي اقتنياه من عندك..هل لك أي علاقة بالجريمتين؟

_لا..لا..أنا لا علاقة لي بأي شيء، والدواء مرخص به ولا تشوبه أي شائبة...فعلا لقد اشتريا الدواء من صيدليتي لكن لا علم لي بما حصل لهما بعد ذلك...

_ما حصل أنهما ماتا بسبب هذا الدواء...

_عفوا أيها المحقق..ماتا بسبب جرعة زائدة إذن الأمر مختلف، لقد وصفت لهما كتابيا كيفية استعماله بخط يدي على علبتي الدواء، وهو ما يعني أنني لست

مسؤولا إذا أخطأ الحريف في استعمال الوصفة ..

_وكم من مرة يجب على المريض تناول هذا الدواء؟

_مرة واحدة بعد كل وجبة..

_ولكنك نصحتهما باستعماله ثلاث مرات بعد كل وجبة، أليس هذا خط يدك؟

ويدقق صاحب الصيدلية في العلبة مستغربا، ويصيح:

_أنا بريء..أنابريء ..هناك من تلاعب بالوصفة..

وأودع الصيدلاني السجن في انتظار محاكمته، وكان رياض غير مرتاح لسير التحقيق..

وانتشر خبر توجيه الاتهام لصاحب الصيدلية انتشار النار في الهشيم، واقترب موعد محاكمته، وكان رياض شارد الذهن عندما دخل عليه زميله مراد وابتسم قائلا:

_لقد كانت قضية عويصة، ولكننا اهتدينا للقاتل بفضلك أيها المحقق المتقاعد..

_فعلا..فعلا..

وضحك مراد، ثم قال:

_أرجو أن لا يتصل بك أي مجرم بعد اليوم..

_ومن أخبرك بأن المجرم اتصل بي؟

فارتبك مراد ثم قال:

_أنت ..أنت من أخبرتني..يبدو أن الإجهاد قد أثر على ذاكرتك..

_فعلا..فعلا..ربما..

ويظل رياض شارد الذهن، وتعود بالمحقق الذاكرة إلى الوراء، ويستحضر المواقف التي أظهر فيها مراد غيرة كبيرة منه لأنه كان متفوقا عليه و عمقت كلماته الأخيرة الشك الكبير الذي انتابه تجاه مراد، ويهتف في نفسه:

_أنا لم أخبره بأي شيء!لا بد أنه من اتصل بي وهو من تلاعب بالوصفة ليورطني في اتهام بريء فأبدو ساذجا أمام الجميع..

وخرج بعدها مسرعا، وطلب الاذن لمقابلة القاضي قبل المحاكمة..وكان له ذلك، وبعد أن دخل إلى مكتبه، تنهد طويلا، ثم قال:

_سيدي يبدو أنني أخطأت في التشخيص، يبدو لي ان المتهم بريء..

_ولكنك انت من استجوبته، واكدت انه أخطأ في الوصفة..إذن لقد ثبت الجرم..مازال علينا أن نقدر إن كان تعمد ذلك أم لا..

_سيدي ..لقد وصلني رقم غريب، و القاتل الحقيقي هو من اتصل بي وكان ذلك بعد ايداع الصيدلاني السجن..

واحمر لون رياض فهو لم يعتد أن يكذب ولكن.. كان يجب أن يفعل ذلك ليؤخر محاكمة الصيدلاني، ويواصل :

_وكان ينذرني بأنه يحضر لجريمة أخرى، وكنت قد اكتشفت سابقا أنه يترك لنا صورة لمكان جريمة أخرى على شاشة هاتف الضحية..وهو ما يؤكد أنه لن يتوقف عند هذا الحد..لندع المتهم في حالة توقيف وان حدثت جريمة أخرى فهو حتما ليس القاتل..

_سنؤخر المحاكمة إذن في انتظار أي تطورات جديدة..وان صدقت تخميناتك سنفرج على المهتم..

وأعلم المحقق جميع زملائه بأنه لن تتم محاكمة الصيدلاني الآن وأن القضية لم تغلق بعد، ثم قفل رياض راجعا الى بيته مستبشرا لأنه نجح في اقناع القاضي قبل أن يحاكم الصيدلاني البريء..وكان عاقدا العزم على اثبات براءته ..ويفتح الباب بصعوبة وكأن أحدا ما قد عبث بالقفل فيمعن النظر فيه، ثم يتمتم:

_هل أن أطفال الجيران عبثوا بالقفل... لا أظن ذلك!!..

وبعد أن تناول طعامه على عجل، يلقي بنفسه على السرير من شدة التعب والانهاك، وكان مستلقيا على فراشه وقد شعر بدوار خفيف، وكان لا يستطيع تحريك أطرافه، ولم يعد يقوى على الكلام، ولا يعلم سر هذا المرض المفاجئ الذي ألم به..ويدخل شخص ما غرفته ويخاطبه:

_لقد بدأ تأثير المخدر الذي دسسته لك في الطعام يعطي مفعوله، سأناولك الآن نفس الجرعة الزائدة من الدواء، وقبل ذلك سألتقط صورة لغرفتك الجميلة لأزين بها شاشة الضحية القادمة..لقد كنت تتذيل قائمتي الطويلة، ولكنك فرضت علي بأن أعجل بقتلك لأنك تحشر أنفك في كل شيء وبدأت تفسد لعبتي الرائعة.. ألم يكن من الأجدر لك أن تنعم بتقاعد مريح؟...

وكان رياض يجاهد نفسه ويفتح عينيه الزائغتين ليعرف مخاطبه..إنه المحقق مراد..

ويجاهد نفسه ليتكلم وهو يحرك شفتيه بصعوبة:

_ولكن لماذا تفعل هذا..؟؟لماذا تقتل أبرياء؟؟ولماذا تلتقط الصور؟..

_لأسخر من المحققين الحمقى الذين نالوا الترقيات تلو الترقيات بينما تم تجاهلي..أفهمت لماذا؟!! لأجعل منكم موضوعا للتهكم والسخرية من الجميع... وداعا صديقي..

وبعد أن يتم كلامه يسكب قارورة الدواء في فم المحقق، فيصفر لون رياض، ويتطاير اللعاب من فمه وهو يرتجف ويقول:

_لقد أثبت..لقد أثبت.. براءة الصيدلاني..

فيتسمر المجرم في مكانه، ويتمتم قائلا:

_تبا لك!!..تبا لك..لقد كنت تعلم أنني هنا وأردت الموت لتبرئة الصيدلاني!!..

انتحار

كان جابر فقيرا جدا، وكان لا يكاد يستقر في وظيفة حتى يطرد منها لسبب أو لآخر، و كان عرضة للتهكم والسخرية من الجميع حتى من أقرب أصدقائه..وذات شتاء قرر الانتحار، وكان يقول في نفسه:

_أعلم أن ما سأقدم عليه ليس عين الصواب، ولكني على الأقل سوف أنهي سلسلة فشلي المتواصل، فلم يعد بامكاني المحاولة مرة أخرى..

وكانت الليلة شديدة الظلمة عندما قرر الخروج لتنفيذ قراره، وكان ينظر إلى رذاذ المطر المتساقط من خلف الباب، ويلقي نظرة حزينة نحو منزله المتواضع وكأنه لا يقوى على فراقه، ثم يخرج متأبطا معطفه الجلدي، وكان أغلى ما يملك، فربما أراد أن ينتقل للعالم الآخر بلباس فاخر..

وكان القمر يختلس النظر إليه من بين الغيوم، فيزيح عنه أثر الظلمة الجاثمة فوق جسده، فيلمع المسدس في يده..

وكانت الطرقات خالية في ذلك الوقت المتأخر، فلا يسمع في الآفاق سوى عزفات الرياح و أصوات قرقعات هنا وهناك، ويقطع ذلك الصمت المطبق دوي رصاص، ويسقط جابر أرضا، فتشتعل أنوار بعض البيوت وتلألأ الأعين الفضولية من خلف الشبابيك المغلقة..

وكان بعض أقاربه و أصحابه يحملون نعشه، وكانت لا تبدو عليهم أي علامات للحزن، وكان ينظر إلى ابتساماتهم الساخرة في الخفاء قبل يغلق عليه القبر، فأدرك في ذلك الوقت أنه اختار القرار الصائب...

واجتمعت حوله الملائكة مقطبة وجوهها، فأدرك أنه هالك لا محالة، وقال:

_أعلم فداحة ما اقترفت ولكني أود منكم طلبا أخيرا قبل أن تلقونني في الجحيم، وإني قد عشت حياة بائسة وأريد أن أطلع على أهل النعيم، وأتوسل إليكم وهذا رجائي الأخير..

واستشار الملائكة بعضهم بعضا، وقال أحدهم:

_إنك عصيت ربك أشد المعصية، ورغم ذلك هو يوافق على طلبك ويقبل رجاءك..

وأخذته الملائكة عاليا، وكانت تخترق الظلمة التي تملأ المكان بسرعة خيالية، وأشرقت الأنوار فجأة، وألقت به في مكان أشبه بالحلم..حقول شاسعة وأشجاروأنهار، كان كل شيء يشع بنور لم يرى مثيلا له في الدنيا..فكانت المياه لشدة صفاوتها كالمرايا تنعكس عليها صور العالم الجميل المحيط بها..وظل جابر يتأمل هذا الجمال الخلاب، وقد اعترضه سكان ذلك النعيم، وكانت وجوهم نقية وكأنهم خرجوا من بطون أمهاتهم لتوهم..وعاش بينهم وكانت قلوبهم لا تحمل لا حسد ولا بغضاء، وكان يتمنى لو أن لهم مثيلا في الدنيا فلو كان ذلك لما أقدم على الانتحار..وكان يتجول بين المروج عندما صادفه شخص ما أشد شبها به، ولكنه يبدو أشد قوة ونضارة منه، ولكن تفاصيل وجهه تشبهه إلى حد كبير، فذهل لذلك واقترب منه..وكان هذا الشخص يملأ جرته من نهر أشد بياضا من الحليب، فبادره جابر بالسؤال:

_سلام عليك أيها الأخ الكريم، اعذر تتطفلي، فإنك تشبهني كثيرا لذلك أردت أن أتعرف إليك..

والتفت إليه الشخص فأشرق نور وجهه ولمعت عيناه وقال:

_وعليك السلام أيها الأخ، لا حرج في ذلك إطلاقا..اسمي هو جابر..

فذهل لماسمع وتغيرت ملامح وجهه من فرط الدهشة، وهتف في نفسه:

_كيف له أن يشبهني كأنه توأم لي، ثم يشاركني نفس الاسم؟؟!!إن في الأمر سرا ما..

وتقدم نحوه أكثر ليسأله مرة أخرى ولكن هذا الأخير قاطعه قائلا:

-إن أسوء ما في الإنسان لسانه، فهو من يشعل نار الضغائن، لذلك نحن هنا لا نتكلم كثيرا..وداعا أيها الأخ..

وتركه ثم مضى في حال سبيله، وكان جابر يتتبعه بعينيه الزائغتين وآلاف الأسئلة تنخر عقله، وقرر أن يعرف حقيقة شبيهه في هذا النعيم..

وظل يسير في ذلك المكان الممتد حتى أنه كلما تقدم نسي ما رآه سابقا، فتلك الجنان تزداد روعة، وتراءت له شجرة وارفة الأوراق وكان رائحةطيبها تملأ الآفاق، وخيل له أن عناقيدها المتدلية أقمارتسبح بين ظلمات الأغصان..وكان يتفيأ ظلها شيخ، وكان ينكث بعصاه الأرض، واستغرب جابر فهو لم يشاهد شيخا قط في ذلك المكان، وتقدم نحوه، وعندما هم بسؤاله، بادره الشيخ بالحديث قائلا:

-هل جئت لتسألني عن شبيهك؟!!!

فاستغرب جابر، وأجابه بتلكئ:

-نعم أيها الشيخ الورع..هو كذلك..

_إنه أنت.. لو صبرت على فقرك لكنت ستجد نفسك في مكانه!!

_حقا!!..ولكن كيف لي أن أكون في مكانين مختلفين في نفس الوقت ؟

_لأنك خيرت بين مكانين وأنت اخترت الأسوأ..ولو فتح لك باب الجحيم لرأيت شبيها لك كذلك..

_ولكن أيها الشيخ، لقت قست علي الحياة ولم تترك لي مجالا للخيار..

_وهل تظن أن هؤلاء الناس كانوا أحسن حالا منك؟؟..امض في حال سبيلك ..فات الأوان..

وما إن أنهى الشيخ كلامه حتى سمع جابردويا في الآفاق كصوت الرعد في الدنيا، فاشرأبت عنقه نحو الفضاء الأعلى، فإذا بالملائكة نازلة وهي تصفق بأجنحتها فأطلقت ريحا أشد قوة من أعاصير الدنيا فاهتز المكان برمته، وجثم جابر في مكانه، وكان يعلم أنهم قادمون لالقائه في قعرالجحيم، فصاح باكيا:

-اتركوني أرجوكم، لا أريد أن أغادر هذا المكان..

وكانت دموعه تنهمر بغزارة من شدة الخوف، وكان يشعر بسيلانها فوق خديه حتى سقط مغشيا عليه، وكانت الملائكة تسحبه غير مكترثة به..

وظل في غيبوبته مدة من الزمن، ثم فتح عينيه المثقلة بالدموع، وكان ملقى في بركة من المياه وقد تبلل كل جسده النحيل، وقال في نفسه:

_أين انا؟ماهذا البلل؟أهذه دموع أم ماذا؟؟

ونهض متثاقلا، فوجد نفسه في الشارع القريب من منزله، وكانت مياه الأمطار قد غمرت المكان، وكان لايزال ممسكا بالمسدس في يده...

زبانية الظلام

..كانت الظلمة تكتسح الغاب، وكانت الأشجار الوارفة منتصبة كالأشباح تتراقص تحت ضوء القمر الذي كان يختلس النظر من وراء الغيوم، وكانت تخترق الأشجار المتراصة طريق طويلة ملتوية تنتهي عند مشارف المدينة..وكانت الطريق خالية وكأن الأرض قد ابتلعت سكانها، فلا يسمع في ذلك المكان المقفر سوى أنات الرياح في الأفق الممتد فزادت المكان وحشة..بين قطع الظلام المبعثرة يتمثل شبح انسان، وكان شابا على مشارف الكهولة..كان يجلس تحت شجرة وكان ممسكا بشيء ما بين ذراعيه والدموع تنهمر بغزارة من عينيه الحمراوتين..وكان القمر يكشف عن محياه بين الفينة و الأخرى فتتجلى بوضوح ترسبات الحزن والأسى.. وكان يبكي ويقول بصوت متقطع:

_يا الله..ياصغيري الحبيب..ماهذا المرض الذي ألم بك فجأة؟..ألا يوجد أي سيارة لعينة مارة بهذا المكان المقفر؟..

وتمر الساعات بتؤدة، وكأن الزمن يأبى أن يتقدم فتزداد اللحظات قساوة على قلب ذلك الأب الملتاع..وكان الكهل لا يزال جاثما بمكانه، وكان ينظر إلى السماءويبتهل، وكان يمني النفس بأن تمرأحد السيارات من ذلك المكان...وبعدما بدأ اليأس يدب في قلبه المحزون سمع فجأة دوي احدى العربات فقطع السكون الرهيب الذي كان يخيم على الغابة...وينتفض الأب ويترك ابنه جانبا ويهرول باتجاه الصوت القادم ملوحا بيده وهو يصيح:

_أدركوني..أدركوني..ابني يموت..

ويظهر من بعيد بصيص نور، وكان يخترق الظلام الدامس، وكان يبدو خافتا لكن الأب كان يترصده بعينيه الزائغتين.. وكان يبدو من بعيد كالأسد المتربص بفريسته، وتصل العربة أخيرا بعد أن استنزفت صبر الوالد الممحون على ابنه... وتقف الشاحنة المتهالكة وينزل منها شيخ ستيني، وكان الأب قد اعترض سبيله، وكان الشيخ يتقدم ببطئ نحوه وهو يتحس شعر لحيته المجعدة..ويبادره بالسؤال

-ماخطبك يا ويليام؟ما الذي أخرجك في هذا الوقت المتأخر؟

-آه..أهو أنت يا ألفونسو..حمدا لله أنك أدركتني..ان ابني مريض جدا، وأرجو منك أن توصلني الى أقرب مستشفى..

_حسنا..حسنا بكل تأكيد..أرجو أن لا يصيبه أي مكروه..تفضلا بالصعود..

وكانت عربة العجوز المتهالكة تسير ببطئ، وكان الأب يسترق النظرات الى السائق وكأنه يستحثه على الاسراع، وكان العرق يتصبب من جبين الصبي الصغير، وكانت أناته الحارقة تملأ المكان فتزداد محنة الأب..ويصمت المحرك فجأة، ويتوقف معه قلب الأب عن الخفقان، وينظر للعجوز مستغربا فيبادله النظرات المبهمة، ولكن الأب الملتاع سرعان ما يصيح

_ما الذي جرى يا ألفونسو؟..ابني يموت..هل تعطلت العربة؟..

_..لا..لا تقلل سوف أرى الأمر..

وينزل العجوز من العربة متثاقلا وهو يتمتم بكلمات غير مفهومة، وكان يفحص المحرك ويقلب الأسلاك بين يديه ثم يعاود الصعود الى العربة ويحاول تشغيلها، ولكنها تظل تصدر صوتا أشبه بأنين الطفل وتتوقف، وكان يعيد الأمرمرارا وتكرارولكن العربة أبت أن تشتغل..ويمر الوقت ثقيلا ودقات الأب تتسارع.. وهويمسح بيديه المرتعشتين جبين الصغير، ويدقق النظر فيه وكأنه يراه

لأول مرة..وكانت هواجس فقدانه ابنه للأبد تنخر عقله وتزيده ألما، وكان يمني النفس بأن يتمكن العجوز من اصلاح العربة..ويصعد ألفونسو أخيرا بعد طول انتظار الى العرب، وكان متجهم الوجه والشحوب بادي على محياه..ويطلقنفا عميقا، ثم يقول:

_يبدو أننا سنكمل الطريق مترجلين...

ويضع الأب يده على رأسه بعد أن نزل عليه الخبر كالصاعقة، ومالبث أن حمل ابنه بين ذراعيه وينزل مسرعا من العربة دون أن ينبس ببنت شفة..وكان يسرع الخطى والعجوز يحاول اللحاق به.. وكان الليل قد انتصف، ولايزال المترجلان يسابقان الزمن للوصول الى المدينة على أمل أن ينقذ الأب ابنه من الهلاك..ما أقساها من لحظة تلك التي يتحمل فيها الانسان عبء الحياة لوحده فتصغر لديه كل الأمنيات الكبيرة، ويصبح هدفه من الحياة مجرد ضحكة بسيطة لصغيره، و كان لا يعيرها أي انتباه من قبل..ويظل الوالد يمشي حينا يرتاح حينا آخر متفحصا ولده في كل لحظة..وكان العجوز يلهث خلفه بعد أن عجزت ساقاه على حمله، وكان لا يبدو متأُثرا كثيرا فهو بالأساس استأنس بوجود الأب وابنه في ذلك المكان المقفر..ويتوقف ويليام فجأةوكان يتحسس ابنه ويقول:

-ماهذا..انه شديد البرودة..صغيري هل أنت بخير..انه لا تنفس..لا يمكن أن يحصل هذا ..سنصل الى المستشفى قريبا..هيا أفق ..هيا تحمل للحظات..أرجوك بني لا تتركني ..أرجوك..صغيري..

ولكن الطفل الصغير لا يحرك ساكنا، ويقع ويليام على ركبتيه، وكانت الدموع قد سبقته وبللت أديم الأرض، وكان يمسك ابنه بين يديه ويضغط على الغطاء بقوة لعله يستفيق ولكن الموت كان أسبق، ويدخل الأب في نوبة هستيرية من البكاء والعويل، وكان العجوز ألفونسو يقترب منه ويربت على كتفه في صمت...

وكان الأب يبكي ويقول:

-آه يا فلذة كبدي...لماذا رحلت عني ..؟.انك مازلت صغيرا على الرحيل..لو طلبت مني أن أعطيك عمري لفعلت..لكنك لست مذنبا ..هم المذنبون..هم الذين قتلوك..هم الذين قطفوك قبل أن تزهر..لا تقلق يا بني..نم بسلام، سوف أنتقم لك..أعدك بذلك..

ويلتفت للعجوز خلفه، ويرمقه بنظرة حادة، ويزيح يده عن كتفه بقوة، ويقول:

_أنت السبب في مقتل ابني ..لماذا لم تصلح العربة؟..هذا اذا كانت قد تعطبت فعلا..لماذا لم تسرع للمستشفى؟..أنت السبب أيها العجوز..لماذا تعيش أنت وقد أدركت أرذل العمر بينما يموت هو ولم يرى من الحياة شيئا..نعم أنت السبب..

_ولكن ماذا دهاك يا ويليام؟..لقد حاولت أن أسرع قدر الامكان ولكن العطل حال دون ذلك..أتفهم شعورك..ولكنني لست مذنبا في شيء..

ويهم العجوزبالمغادرة، ولكن ويلام يمسك بأطراف سرواله..ويجذبه بقوة فيسقطه أرضا..ثم يلقي بجثة ولده جانبا ويقوم من مكانه والشرر يتطاير من عينيه..وينهال على العجوز بالضرب والركل المبرح حتى سالت دماؤه وأفقده وعيه.. وكانت مشاعر الحقد والغضب قد أعمت بصيرته فيلتقط حجرا ضخما ويهوي بها على صدر العجوز..وكان ويليام يتنفس بسرعة..ويقترب من العجوزالذي كان لا يحرك ساكنا، وكان يتحسس نبض قلبه، ويقول في نفسه

_يبدو أنه مات..تبا لك..تستحق ذلك..

وكان يحمل جثة ابنه بين يديه ويفكر في طريقة لاخفاء العجوز قبل أن يفضحه ضوء النهار، وكان يفكر في سحبه نحو العربة ثم يضرم فيها النار فيعتقد

الجميع أنه تعرض الى حادث، وراقت له تلك الفكرة فيقرر تنفيذها..وكان يمسك بصغيره بيده اليسرى ويسحب العجوز بيده الأخرى وهويتمتم:

_ما أثقلك أيها العجوز..أي صدفة هذه جمعتني بك.. فلا أنت أنقذت ابني وها انني تورطت بقتلك..آه..آه..أين شاحنتك اللعينة؟

ويقترب من الشاحنة فتنفس الصعداء، وبعدما وضع جثة العجوز بداخلها حدثته نفسه بأن يحاول تشغيلها..وصدق حدسه واشتغل المحرك فصاح غاضبا:

_لقد كنت متأكدا أن هذا اللعين كان يماطل في اصلاحها، بل كان مترددا ولا يود اصطحابنا فتسبب في وفاة صغيري الوحيد..تبا لك تستحق ما جرى لك ’ولن يكفيني موتك ..سآخذك معي الى المزرعة وأنكل بجثتك..الى الجحيم..الى الجحيم.. وبعد أن هدأ وضع جثة صغيرهبجانبه ثم ألقى بالعجوز خلف العربة وقفل راجعا الى منزله..

وكان يقود العربة والشرر يتطاير من عينيه، ثم ينظر الى جثة صغيره بجانبه فتغمره نوبة من البكاء، وكان يمسك المقود بيديه المرتعشتين، وكانت العربة تتمايل يمنة ويسرة، ولولا أن الطريق كان خاليا لما نجا قبل أن يدرك مزرعته التي كانت تطل على سهل أنحاء الغابة..وما ان وصل حتى سارع باخفاء العربة في مستودع للآلات القديمة وكان ينوي تفكيكها وبيع قطعها فقد كان ماهرا في ذلك..

وألبس ابنه أخر ملابسه ثم قبله على جبينه القبلة الأخيرة قبل أن يدفنه بجوار أمه التي وافتها المنية العام الماضي بعد أن ألم بها نفس المرض الذي أصاب ابنها..وكان ويليام نثر التراب على جثة ابنه وهو شارد الذهن..وكان الفجر قد بدأ في ارسال خيوطه الأولى، وكان لا بد أن يتخلص من جثة العجوز..وجلس لبرهة بجانب قبر ولده، وكان يستحضر كل حركاته وسكناته تتسارع دقات قلبه وما لبث أن ينتفض من مكانه فيركل جثة العجوزبرجله ثم يلتقط فأسا كان يستعملها

في تقطيع الخشب ويضرب بها الجثة عدة ضربات مسترسلة في حركة سريعة وجنونية وكان الدم يتطاير هنا وهناك...حتى أن جسمه تلطخ كله بدماء ضحيه، ولم يبق من جثة العجوز سوى قطع متناثرة هنا وهناك...وكان ويليام يلعق يديه المخظبتين بالدماء ويقهقه بصوت مرتفع..ولم يكفيه ذلك بل أخذ يجمع قطع العجوز المتناثرة، وكان يحفر حفرا في أنحاء متفرقة من المزرعة، ثم يقوم بدفن رأس الضحية على حدة، وأطرافه في مكان آخر ثم باقي جسده..وكان يغرس في كل حفرة شجرة، وكان يقول:

_سوف تطبق جذور الأشجار على روحك العفنة.. سأعذب روحك حتى بعد مماتك..سوف تدفع ثمن استهتارك بروحي ابني غاليا..

ودخل ويليام بعد هذه الحادثة في حزن عميق تواصل لعدة أيام قبل أن يخرج ويقرر الانتقام...

وكان يحدث نفسه"لماذا يهنأ الجميع بأبنائهم بينما يموت ابني..لماذا تمرض زوجتي وابني بنفس المرض فيقضي عليهما بينما ينعم أبناؤهم بالصحة والعافية وعندما يمرضون يتفنن البشر في صناعة الأدويه وبيعها لمن يشاؤون وبالأثمان التي يريدون..هل اتخذ الانسان دور الاله فيحيي من يشاء ويميت من يشاء..؟ سوف انتقم..سوف أقيم دولة العدل حسب قوانيني التي سأكتبها بيدي..نم هانئا يا صغيري فقد حان وقت الانتقام.."

ويتحول المزارع البسيط ويليام الى قاطع طريق، وكان يخرج في الليالي المظلمة متلثما فيسطو على العربات وينهب ما يستطيع نهبه، وكان قد جمع أشياء ثمينة جراء ذلك، وكان يسطو على منازل في المدينة كذلك وكان يختار التي تبدو على أصحابها علامات الثراء..وكانت أخبار اختفاء العجوز ألفونسو وسلسلة السرقات وعمليات السطو قد تناهت الى مسامع الشرطة فبدأت عمليات البحث والتحقيق

في تلك الأنحاء، وصادف أن مرت احدى سيارات الشرطة بمزرعة ويليام فقرروا تفتيشها..وانتشر أفراد الشرطة في كل مكان حول المنزل ولم يجدوا أي شيءيثير الشبهة فلم يترك ويليام أي دليل يمكن أن يدينه.ولم يخطر ببالهم أن مزارعا بسيطا منهمك في زراعة أرضه وسقي نباتاته قد يكون وراء كل تلك الجرائم..وقد حافظ ويليام على هدوئه ولم يبدو عليه أي ارتباك وهو ماجعل الشرطة تستبعده من قائمة المتهمين..

وكان ويليام قد رسم لنفسه خطة واضحة المعالم، وبعد أن جمع مالا وفيرا انتقل الى المرحلة الثانية من خطته...

ذات مساء عندما أرخى الليل سدوله على الغابة المقفرة، وبينما كان كعادته يمشط الطريق المؤدية الى المدينة استرع انتباهه صوت طفل..لقد كان يشبه صوت صغيره، فتقدم نحوه..لقد كان صغيرا في عمر ولده وكان يلعب بجانب والدها فتقدم ويليام نحوهما وابتسم فحياه الرجل..وركض الطفل باتجاهه فاحتضنه ويليام بكل قوة ثم قبله وكان يمعن النظر اليه ثم سأله

_ما اسمك يا صغيري؟

_آرثر..

_اسم جميل..ان ابني في مثل عمرك..وهو يشبهك الى حد كبير..

وتقدم والد الطفل منهما وقال

_ هيا يا آرثر يجب أن نعود ال المنزل لقد تأخر الوقت..عمت مساء أيها الأخ.

ويقف ويليام فجأة، ويطبق بقبضته على الرجل ثم يغلق فمه ويباغته بطعنة أرداه على اثرها قتيلا وقبل أن يقع وضع رأسه على كتفه لكي لا يشعر الصغيربشيء..ثم حمل الجثة الى السيارة وقام بتشغيلها فاتجهت نحو منحدر

صخري... وكان الصغير ينط هنا وهناك لا يدرك ما يحصل، ويمسك ويليام بيد الطفل، ثم يقول

_هيا يا آرثر ..لقد رحل أبوك وتركك معي..أنا من اليوم والدك ويليام..

وكان الصغير يتبعه ويتممم قائلا

_والدي ويليام..ويليام..أنا آرثر...

وبعد الصبي آرثر تتالت عمليات خطف الأطفال من كل مكان..فقد خطف طفلا من الحديقة العمومية في غفلة من والدية، ثم تكررت العملية فقد تم خطف عشرات الأطفال..كان ويليام يقول بينه وبين نفسه:

_لماذا ينعم الجميع بأطفالهم بينما أحرم أنا من فلذة كبدي..؟

كان يريد أن يذيق سكان القرية مرارة ما ذاقه، وكان قد هيأ لهم سردابا مظلما تحت الأرض، يبلغ من العمق ما لا يستطيع أحد تخيله وكان للسرداب باب سري في منزل ويليام أحكم اخفاءه..وكان يوفر لهم كل ما يحتاجونه من الطعام والشراب واللباس، فكانت مزرعته تدر الكثير من الخيرات التي كان يتقاسمها مع أطفاله..وكان يلقنهم تربية خاصة، فهو لا يخرجهم أبدا وكانوا يكبرون أمامه وسط الظلمة القاتمة، و بالكاد يضيء لهم بعض الشموع ليعلمهم القراءة والكتابة وكذلك دروسه الشيطانية، و دوما يردد على مسامعهم هذه الكلمات:

_أطفالي الصغار..أنتم أهل الظلمة، ستكتشفون يوما أن في الخارج يوجد كائنات من النور وسوف تحاربونهم، لأن النور والظلمة لا يلتقيان أبدا..لقد سميتكم زبانية الظلام..أنتم من ستحررون الأرض من دنسها، كل سكان العالم الخارجي أعداء لكم ..

وكبر الأطفال، وتتالت السنين وهم على تلك الحال..وشبوا وسط الظلمة..وكانوا لا يرون من العالم سوى ذلك السرداب المظلم، وكان ويليام لا يبخل عليهم بشيء فيوفر لهم ما لذ وطاب، فأحبوه مثل والدهم فهو ما ينفك يلقنهم الأفكار الجهنمية التي تغلغلت في نفوسهم منذ الصغر..فصنع منهم وحوشا مستعدة للانقضاض على كل ماهو آدمي.. الآدميون أو أهل النور كما لقنهم ذلك هم أعداء لهم ..وماهي إلا أيام حتى يخرج زبانية الظلام الى النور..فقط مسألة وقت..

وجاءت اللحظة الحاسمة، ويجتمع ويليام بأطفاله، ويقول:

_لقد كبرتم يا أبنائي، وكنت قد أعددتكم لهذه اللحظة، وسوف تخرجون الآن للنور فلا تبهروا به فأنتم ترعرعتم وسط الظلمة ولكن يجب أن تعودوا أنفسكم عليه، لأنه من الضروري التعود على هذا النمط الجديد وذلك لتستطيعوا محاربة العدو فوق أرضه ..هلموا فالبشر يتربصون بكم ..هلموا .!! لقد صنعت منكم وحوشا لا يتسرب النور إلى قلوبها....فلتخرجوا الآن الى النور يا زبانية الظلام!!!

وكان الزبانية يخرجون الواحد تلو الآخر، وكانو متراصين يتشبث كل أحد بالآخر وكانوا يضعون أيديهم على أعينهم..وعندما سطعهم نور الشمس للوهلة الأولى ذهلوا لذلك وعاد أغلبهم إلى جحورهم، وكان ويليام يمنعهم من ذلك ويأمرهم بالانتشار في أرجاء الغابة وفي السهول المحيطة بالمزرعة حتى يتعودوا على نور الشمس، وعاد الزبانية عندما حل الظلام وكان خروجهم الأول إلى عالم النور قاسيا ولكنهم بمرور الوقت ومع تكرار العملية كل يوم تعودوا على النور.. وكان ويليام قد أعد خطة محكمة، فبعد أن أجبر زبانية الظلام على التعود على العالم الخارجي كان سيبدأ أولى فصوله للانتقام وكان يخطط لاجتياح المدينة.. وكان لا بد من السيطرة أولا على مستودع الأسلحة ولذلك كان لابد من الهجوم على خفر الشرطة ثم السيطرة عليه...وعندما انتصف الليل خرج الزبانية كالجراد

المنتشر وكانوا ينطون من مكان إلى آخر كالخفافيش فلا قبل لأحد بمقارعتهم في محيطهم الذي تربوا فيها، وكان ويليام قد دربهم على شتى أنواع القتال، فكان الزبانية مقاتلين بارعين، وكان ويليام يتقدم صحبة زبانيته ودخل الخفر فلم يجد فيه سوى عوني حراسه.. قضوا على الأول قبل أن يخرج سلاحه.. بينما دلهم الثاني على مستودع الأسلحة وكان الأخير يرتجف من شدة الخوف ويتوسل اليهم ليطلقوا سراحه ولكنه لا يعلم أنه امام كائنات قساة القلوب لا مكان للرحمة في قلوبهم، فقضوا عليه كذلك بعد أن دلهم على منازل أفراد الشرطة المسلحين..وكان الزبانية يداهمون تلك المنازل في جنح الظلام فيقتلون جميع قاطنيها، ومع انبلاج الصباح لم يبق في تلك المدينة فرد واحد حامل للسلاح..ومع بزوغ شمس النهار هاجت المدينة وماجت ودخل السكان في فوضى عارمة، وتعطلت كل المنشئات الحياتية، ولا يسمع في خضم تلك الفوضى سوى تمتمات:

_كائنات غريبة اجتاحت المدينة وقطعت كل قنوات الاتصال، يجبوا أن نحاربهم وإلا هلكنا...

وفي غضون أيام معدودات استفرد ويليام وزبانية الظلام بكل الأسلحة وسيطروا على كامل المدينة، وكان مقاتلوا الزبانية يعدون بالمئات وكانوا منتشرين في كل الأماكن فاثاروا الرعب والهلع في صفوف المتساكنين...وحاول بعض السكان محاولات يائسة لمقاومة الزبانية ولكنهم كانوا مسلحين، غلاظ، قساة القلوب يقتلون كل من يقف في طريقهم فخضع أغلب السكان بينما هرب قلة قليلة...

وأصبحت المدينة خرابا، لا يرى سوى حطام الأبنية والسيارات، والجثث المنتشرة هنا وهناك..ونصب ويليام نفسه حاكما للمدينة، وكان قد سن قوانين جديدة..فانقلبت الحياة رأسا على عقب.. تفتح المحلات وجميع المرافق في الليل وتغلق في النهار.. فأصبح نهارهم ليلا وليلهم نهارا، وكان يهدف من وراء ذلك إلى

تحويل جميع سكان المدينة إلى زبانية مثلهم...

وكان أفراد الزبانية قد استفردوا بالحضارة لأنفسهم فيما أعادوا باقي السكان للعيش البدائي، وكانوا يسخرون الجميع لخدمتهم..

فقد استحوذوا على الأموال والبنوك، وكانوا يقتلون من يرفض الانصياع لهم، وكان ويليام يحاول جلب النخبة من العلماء الى صفه دون استعمال القوة وذلك ليستثمرهم في خدمات لتصنيع آلات جديدة...وكان الزبانية قد تفقهوا في شتى أنواع العلوم فقد كان ويليام يعلمهم وهم صغار ولازالت كلماته تردد في آذانهم..

"ان العلوم هي التي قامت بتغيير العالم فالقوانين والدساتير الفارغة التي يسممون بها أسماعنا، كلها هراء في هراء..ومن يمتلك العلم يمتلك القوة فيسن القانون الذي يريد!!"

..وكان الزبانية بعد سيطرتهم على المدينة قد نجحوا في حيز زمني صغير في تطوير أسلحة جديدة، وطوروا كذلك عقاقير غريبة لتكبيل غرائز السكان الذين يرفضون الانضمام إليهم فكان يرون أن الزبانية فقط يحق لهم التكاثر لكي يغرق العالم في الظلام...وكانوا قد حولوا المدينة إلى سراديب مظلمة تحت الأرض، فكانوا بطبيعتهم التي هيأهم عليها ويليام يميلون للعيش في الكهوف ...وكانت أعداد الزبانية في تتزايد بكثرة، وكانت قوتهم تتضاعف يوما بعد يوم....

ولم تكن مدينة الزبانية منعزلة عن العالم، فقد تناهت إلى أسماع سكان المدن والقرى المجاورة، وكذلك البلدان المجاورة وصلتهم أخبار مدينة الظلام التي يحكمها زبانية أشداء لم ترى الأرض مثيلا لهم...

وكان لابد من إيقاف هذا النزيف، لذلك اجتمع حكماء الأرض، وكانوا قد قرروا إرسال جيش من شتى أصقاع العالم، وكانوا مصممين على تزويده بأفتك أنواع

الأسلحة، وكانت الدول العظمى قد باركت ذلك وقررت إرسال الجيش في أقرب وقت لأن هذه المدينة تشكل خطرا على مصالحهم ان ازداد نفوذها...وفي غضون أيام تنطلق الطائرات والمقاتلات المتطورة بإتجاه مدينة الظلام، فيتساقط وابل من الصواريخ عليها، وتغزو الجيوش المدججة بالأسلحة الثقيلة مدينة الزبانية فتدكها دكا...وفي ظرف ساعات قليلة تطمس جميع معالمها ..وكانت الاوامر تقضي بمحق كل كائن حي سواء كان من الزبانية أو من باقي السكان..ففي الحرب لا يوجد خيارات.. فقط الجميع يسعى نحو النصر مهما كانت التكاليف...واختفت المدينة من فوق سطح الارض ولم يبق منها سوى رماد ودخان متصاعد، فظن الجميع أنهم استراحوا من زبانية الظلام الذين دفن أغلبهم تحت أنقاض مدينتهم...

وكان الزبانية وبأوامر من زعيمهم ويليام قد أعدوا خنادق تحت الأرض متصلة بالسراديب المظلمة التي كانوا يعيشون فيها، وذلك تحسبا للحروب، وكانت هذه الخنادق متصلة بالمحيط، وبعد مدة من الحملة العسكرية الدامية التي نفذها قادة العالم على مدينة واحدة، تجمع الزبانية الذين نجحوا في الوصول إلى المحيط.. وكان قد هلك العديد منهم بعد تلك الحملة، وكان زعيمهم يسعى إلى توحيد صفوفهم من جديد، وكانوا يتصلون ببعضهم في كامل السرية، وكانوا قد اتخذوا مقرا لهم مدينة رومانية قديمة تقع في جزيرة في قلب المحيط، وكانوا يتحركون بحذر، فقد اشتروا صمت بعض خفر السواحل الذي فطنوا اليهم، وظلوا يتوافدون على ذلك المتحف لكي يتدارسوا سبل النجاة..فمعظم البشر يكنون العداء لهم ويطاردون كل أثر لهم في كل مكان على سطح الأرض..واجتمع بهم سيدهم ويليام ذات يوم، و كان يفكر مطأطئا رأسه واضعا يديه خلف ظهره، ثم يرفع رأسه، ويدقق في الزبانية الذين ينتظرون ما سيقول بلهفة..يقول ويليام:

_اننا نمر بأوقات عصيبة، واننا اليوم مشتتون، ولاأخفيكم سرا فقد كنت أتوقع ما وصلنا اليه، فلا قبل لنا بمحاربة الأرض قاطبة، لذلك لا بد من تغيير الخطة،

فنحن لن نستسلم لهم...وكنت قد فكرت مليا واهتديت إلى أنه ينبغي علينا أن نكون مجموعات سرية، ونتغلغل في المجتمعات وفي كل الدول..

يصمت لبرهة، وكانت الأعين تتبع كافة تحركاته، ثم يواصل:

_ان المهمة ليست سهلة، وسنحتاج إلى الكثير من المال والوقت كذلك..ولكنني أرى أنها الطريقة المثلى للنصر فلا قبل لنا بالحرب المباشرة معهم ..لن نكرر نفس الخطأ

وتتعالى الأصوات:

_وماذا عسانا أن نفعل أيها الزعيم؟

_لا بد أن نتقن كل اللغات وكل اللهجات ولا بد أن نمتلك عيونا في شتى الوظائف ويجب أن يكون لهم نفوذ في كل المواقع الحساسة في كل دول العالم، ويجب أن تكون تحرماتهم واتصالاتهم بمركز القيادة في كنف السرية حتى لا يتفطن لنا أحد فتفشل كل الخطة...

وما إن خرج الزبانية من ذلك الاجتماع حتى انتشروا في كل بقاع الأرض، وكانوا قد راهنوا على العلم، فويليام لا يتردد في التكفل بمصاريف الجامعات، وكان الزبانية قد حسنوا من مناظرهم المخيفة، وخرجوا إلى النور، كما أنهم تخلوا عن ميلهم للعيش في الظلام وذلك كي يسهل اندماجهم في المجتمع وينتزعوا كل الشكوك التي قد تحوم حولهم...

وبعد سنوات من بدء الخطة الجديدة صار للزبانية عيون في كل مكان من الأرض، وفي كل وظيفة، وفي كل بلاط..وكانوا قد نجحوا في تبوئ أكثر الوظائف أهمية في الجامعات وفي البنوك وفي الشركات الضخمة، وكان ويليام يختار بنفسه الزبانية التي تبدو عليهم علامات النبوغ و الذكاء، ويعينهم بشتى الوسائل

للوصول إلى أعلى المراتب...

وكانوا يجتمعون كل عام في المدينة الرومانية القديمة، وكانوا يحيون ابان كل اجتماع عاداتهم القديمة...فظلوا رغم تغلغلهم في المجتمع يميلون الى الظلام الذي تربوا فيه، واتخذوا مع مرور الوقت طقوسا أشبه بالعبادات، وكانوا يرتادون أثناء تأديتهم لهاته الطقوس جلابيب سوداء طويلة، وكانوا يستحضرون في كل مرة ذكرى وفاة ابن ويليام..

كان ويليام في كل مرة يلقي خطبة لتحفيز الزبانية، ثم يقدم لابنه قربانا، فكانوا يذبحون غرا صغيرا، فينحر على رقبته من الخلف أمام الجميع، وكان الزبانية يباركون ذلك هاتفين باسم ويليام وابنه الفقيد...وكانوا بعد تأدية هاته المراسم يتشاورون حول كيفية السيطرة على العالم..وكان الاجتماع يظم شخصيات مهمة من وزراءو قادة جيوش ومدراء بنوك وأصحاب اموال، وكان الزبانية قد تعاظم نفوذهم الخفي، فكل هاته الشخصيات منضوية تحت لواء الزعيم ويليام، وكانوا يعتبرون ذلك نجاحا وتقدما كبيرا قبل الخطوة القادمة... ويقول ويليام مخاطبا الوفود:

_علينا البحث عن حلفاء..عن أناس في كل أنحاء العالم لهم تجارب قاسية وهو ما يجعلهم يتبنون أفكارنا بسهولة، وسنكونون محظوظين اذا كان هؤلاء من أصحاب النفوذ، وهذا دعم كبير لنا، وانصحكم بأن تجلبوا كل من يتحمس لأفكارنا وينال ثقتكم بأن تجلبوه معكم ليحضر الاجتماع في العام القادم..

ويقاطعه واحد من قادة الجيوش قائلا:

_أظن أننا جمعنا الكثير من الحلفاء، ولنا جواسيس في كل الأنظمة، وأظن أن أغلب الدول مرتهنون لدى البنوك التي نملكها، ولعل خبراء الاقتصاد خاصتنا يؤكدون ذلك، وأظن أنه من الأجدر شن حرب شاملة على الإنسانية قاطبة، وأظن

أنه الوقت المناسب قبل أن ينتبهوا إلى مخططاتنا...

ويرد عليه ويليام:

_لقد نجحنا إلى حد الآن لأننا نعمل في كنف السرية، ولا أظنه الوقت المناسب لشن حرب واظهار أنفسنا للعلن، فالزبانية تعيش في الظلام وعندما تخرج للنور لا تستطيع الابصار..أنسيتم ذلك...أتفهم حماسة قادة الجيوش ولكني لا اشاطركم الرأي، أرى انه من الأفضل تنظيم عمليات اغتيال وقتل لمن يرفض الانصياع لنا أو لكل من يكتشف مخططاتنا لنضمن سرية نشاطاتنا فهذا الأهم بالنسبة لنا في الوقت الراهن!!!

ويساند رجال الاعمال ومدراء البنوك فكرة شن الحرب ويتعهدون بتمويلها غير أن العلماء يرون ما يراه ويليام، ويقول أحدهم:

_ان الوقت غير مناسب !!فلا مجال للدخول في حرب قد يقضى علينا بعدها..

وتعم الفوضى والنقاشات الحادة في اجتماع زبانية الظلام، ويدخل ويليام ليحسم الأمر، ويقول:

_اني أرى ما يراه نخبتنا العالمة، وآمركم بالتريث إلى أن يحين الوقت المناسب، وعليكم العمل في هذه المرحلة على استقطاب أكثر ما يمكن من أصحاب النفوذ ..أيها الزبانية أعداؤنا كثر ولا قبل لنا للقضاء عليهم جميعا أو تمرير أفكارنا، يجب أن نخادعهم وننتظر الوقت المناسب لننقض عليهم!!

وخرج الجميع راضين عن فحوى هذا الاجتماع، ويظل الزبانية يتغلغلون في كل مواطن القوة في العالم، مستعملين في ذلك نفوذهم المالي الكبير وسيطرتهم على أغلب البنوك، وكانوا يجلبون الأموال بالطرق المشروعة والغير مشروعة، ولا يرون ضيرا في التعامل مع العصابات التي تتاجر في كل شيء، مادام ذلك يجلب

لهم مالا وفيرا....

وامتلك الزبانية أدق تفاصيل الأنظمة الحاكمة وأسرارهم العسكرية، وكانوا يواصلون اجتماعاتهم كل سنة في نفس المكان..وكانت الفوضى والاختلافات تعم المجلس فهم لم يهتدوا إلى الطريقة المثلى لاجتياح الأرض والسيطرة على كل شيء وذلك رغم تعاظم نفوذهم، فهم بأية حال أشخاص منتشرون في كافة بقاع الأرض، وليسوا جيشا منظما ..لذلك كانوا في كل مرة يقررون تجنب الدخول في حرب مباشرة..

وكان من بين الزبانيا شخص يدعى آرثر وهو أول صبي اختطفه ويليام، وكان من المقربين إلى الزعيم، وكان أكثر الزبانية حقدا ودهاء...وكان يطمح إلى الزعامة بعد ويليام..

واثناء إحدى الاجتماعات تقدم من الحشود، وخطب فيهم:

_لا بد لنا من شن حرب..فالحرب هي مآل كل صراع، ولكن ليست أي حرب.. انها حرب صامتة لا يسمع فيها صدى القنابل ولا تطلق فيها رصاصة واحدة، فقد بدأت رائحة مؤامراتنا تفوح..لذلك لا بد أن نضرب ضربتنا قبل أن يفتضح أمرنا للجميع فنخسر كل شيء...

وينظر الزبانية لآرثر في حيرة، ويقول ويليام:

_وماذا تقترح أن نفعل يا آرثر؟

يتوغل آرثر وسط الحشود، ويرفع يده إلى السماء، ويقول بصوته الجوهري:

_أيها الإنسان..أيها الانسان...أنت لست أنت لأنك مسير..نعم مسير...لأنك تسير نحو ما نختاره نحن زبانية الظلام...

ويصمت برهة ثم يواصل

_اليوم يصادف ذكرى وفاة ابن الزعيم ويليام وانها لذكرى قاسية على قلوبنا جميعا..هذه جريمة من جرائم الانسان... هذا الإنسان يسير لا محالة نحو حتفه ونحن من رسمنا له طريق الجحيم، لقد مات ابن ويليام ضحية لشجعهم فلو وفروا له ما وفروا لأبنائهم لكان اليوم بيننا..وان نار الثأر لأخينا لا يجب أن تبرد قبل أن نسيطر على الأرض وما عليها..أهل النور لا يستحقون الحياة ..نحن الظلاميون أولى بذلك!..يجب أن نغرقهم في الملذات والالعاب التي ستكبل عقولهم فيتشبثون بالحياة وتختفي كل المبادئ من قلوبهم، يجب أن ندمر الروابط الأسرية والسلطة الأبوية، وسلطة الدين وسلطة المجتمع لنجعل منهم دواب يتناسلون ويلعبون، يجب أن يصل صوتنا كل البيوت ويدغدغ الجنين في بطن أمه..وهذه مأمورية أصحاب القنوات والصحف الخاضعين لنا، وعندما يزداد تعلق الناس بالملاهي وتشبثهم بالحياة تكون الخطوة الحاسمة، سنوهمهم بانتشار أمراض نحن من يصنعها..ان الخوف من الموت سيكون النقطة الفارقة التي سترجح الكفة لصالحنا.. سنصنع لهم الترياق الذي سيتهافتون عليه كقطيع الأغنام التي تتهافت على معلف الشعير..سيكون هذا الترياق سلاحنا القاتل..أظن أن خيرة علمائنا قادرون على صناعة دواء يؤدي الى العقم ويشوه الأجنة في بطون أمهاتها..انها الحرب الصامتة وستنتصر فيها دون أن تطلق رصاصة واحدة...سيقل عددهم بينما نتكاثر نحن...

وما إن أنهى آرثر كلامه حتى اهتزت قاعة الاجتماعات بالتصفيق، ويقف الزعيم ويليام مباركا ومثمنا رجاحة عقل آرثر..

وبعد تلك الخطبة الطويلة ينحر عشر أطفال على غير العادة تكريما لآرثر نظرا لاهتدائه لخطة محكمة تجنبهم الدخول في متاهة حرب قد تكون وبالا عليهم...

وبعد أن عقد الزبابية العزم على تبني خطة آرثر مروا الى تنفيذها بسرعة،

فمول رجال الأعمال ومدراء البنوك تحت شعار الجمعيات الخيرية في المدن والقرى وأقصى الأرياف حلبات المصارعة والقتال العنيف ونظموا سباق الرهانات، وانتشرت بايعاز من زبانية الظلام الفواحش في كامل أرجاءالمعمورة..

وبينما كان العالم يلهو ويمرح كان الزبابية معتكفين في كهوفهم، وكان ويليام وذراعه الأيمن آرثر ينظمون اغتيالات في جنح الظلام، لأشخاص يظنون أنهم سيعرقلون تقدمهم...

ولكن حصل ما لم يكن في الحسبان، فقد انشق أحد الزبانية عن صفوفهم وكان يدعى سلفستر...وهو غريم آرثر الأزلي منذ صباه وكثيرا ما نشبت بين الإثنين معارك وخلافات طاحنة...

انشق سلفستر عن زبانية الظلام وكان يطمح للزعامة كذلك مثل آرثر..واختفى عن الأنظار..

فاجتمع الزبانية اجتماعا طارئا لطرح الموضوع وكانوا قبل ذلك على وشك البدء في الجزء الثاني من الخطة ألا وهو ايهام الناس بانتشار مرض سوف يهلكهم وهو ما سيثير الفزع في كامل الأرض..ولكن انشقاق سلفستر جعلهم يتريثون.. اقترح آرثر و ويليام بأنه يجب أن تعطى الأولوية لموضوع انشقاق سلفستر ويجب أن تضخ الأموال لايجاده أو قتله لأنه مطلع على جميع أسرارهم وهذا سيكون من أولياتهم ...

وبعد أن اختفى سلفستر عن الأنظار، وكان قد استولى قبل هروبه على اموال وخاصة على وثائق مهمة كفيلة بأن تثير أنظار العالم نحوهم.. بدأ سلفستر في تجميع زبانية حوله كما إشترى بعض القتلة والمجرمين بالمال...

وصادف أن التقى سلفستر صدفة بجنرال لنظام معارض لأحد الدول، وبدأ

يتقرب منه..يقول سلفستر:

_ أعلم بأنك تطمح للسلطة والنفوذ أيها الجنرال...ما رأيك لو أعينك على ذلك ...فإن اتحدت قوانا سيتحقق حلمك..

_اوه لقد عرفتك للتو وتريدني أن أكون شريكك، على ما يبدو ....أنك ملم بأمور كثيرة ولقد أعجبت برجاحة عقلك عزيزي سلفستر ..ولكن أود أن أعرف كيف يمكنك مد يد المساعدة لي؟

_الصفقات الناجحة لا تحتاج إلى مشاعر وحب متبادل، فقط يجب أن تراهن على الحصان الفائز..لكي لا أطيل عليك سأمول لك إنقلاباعسكريا مقابل ذلك أرجو أن تؤمن لي مقرا آمنا في تلك الدولة وأشاركك مقاليد الحكم دون أظهرللعلن

_اقراح مغري ولكن هل هو قابل للتحقيق؟

_لقد خبرت من الحروب الشيء الكثير، ولدي أسلحة متطورة، ونستطيع بالمال شراء ذمة قادة عسكريين..

_حسنا ..لا ضير في أن أجرب، ولكن ان فشلنا..

_لن نفشل..أنا متيقن من النجاح..ولكن قبل كل شيء يجب أن نتعرف على زبانية الظلام المتغلغلين في مفاصل الدولة فنقضي عليهم، لأني لا أود أن ينتبهوا إلى وجودي..

_ومن يكونون هؤلاء الزبابية؟

_لقد كنت فردا منهم، وهم من يتحكمون بالدول في الخفاء...يجب أضع يدي في يدك ولا نثير الاهتمام حتى تاتي الفرصة فنقضي عليهم وبعدها سنقوم بالانقلاب ونسيطر على الدولة

ارتاح الجنرال لكلام سلفستر، وقرر أن يمضي قدما معه...

بعد مدة أحكم سلفستر نفوذه وأضعف الامدادات المالية للزبانية المتمركزين في تلك الدولة، وقطع كل طرق مد السلاح حتى أضغفهم

ثم أغار عليهم فقضى عليهم جميعا، وبعدها قاد انقلابا عسكريا دمويا نصب من بعده الجنرال حاكما عاما...وتناهت إلى أسماع ويليام الأخبار السيئة الآتية من تلك الدولة فاستشاط غضبا، ويقول لآرثر:

_هناك دول خرجت عن سيطرتنا ..هذا ليس مؤشرا جيدا..

_ارجو أن يخيب ظني، وان لا يكون سلفستر وراء ذلك..

_لا..لا أظن أنه بلغ من القوة حتى يطيح بعملائنا ويسيطر على دولة..

ويقرر ويليام بداية المرحلة الثانية من الخطة قبل أن تخرج دول أخرى على سيطرتهم...فبدأت الآلات الاعلامية في الاشتغال، واوهموا العالم بأن هناك وباء قد إنتشر وسيقضي على البشرية قاطبة..وكانت القنوات التلفزية التابعة للزبانية تضخم الأمور..وكان الأطباء الظلاميون يطنبون في الحديث عن المرض الوهمي لتخويف الناس، وكانوا يحقنون بعض المرضى بالسم ويدعون أن المرض وراء ذلك، وتم تضخيم أرقام الموتى، وكان الزبانية يضعون في كل بلد عينات لمرضى قد تم تشويهم جينيا منذ خلقوا..فلا تكاد مدينة أو قرية فوق سطح الارض إلا وضعوا بها عينة لإنسان مشوه..وكانوا يلقون بالعينة في أزقة الطرقات فتتكالب القنوات والصحف لنقل صورة لإنسان شاحب الوجه، جلده شديد الجفاف واللعاب يسيل من فمه، والعينان زائغتان شديدتا الاحمرار، وكان جلده يتساقط فيصير كالشاة المسلوخة، وترى دماءه تسيل من كافة أنحاء جسمه في منظر مقزز يحبس الأنفاس، وكان يرمقون العينة بأعين يتطاير الجزع والخوف منها..وكانوا لا يقتربون منها

متوجسين خيفة من العدوى..واستبد بالأرض الهلع كما لم يحصل لها قبل...وما إن يطل أحد هؤلاء المشوهين في تجمع ما حتى تعم الفوضى وتتعالى أصوات الصراخ والعويل..وترى كلا يفر بجلده..ولم يكفيهم ذلك بل ان الناس صاروا يتقاتلون فيما بينهم لتأمين حياتهم وخوفا من العدوى..ودام ذلك الأمر سنينا والناس في غفلة لا يدرون ما يحاك لهم في الخفاء..

يقول ويليام في إحدى الاجتماعات منتشيا...بعد أن بدت بوادر نجاح خطتهم:

_لقد نجحنا في إثارة مشاعر الخوف من هذا المرض المزعوم، وها انهم يقبضون أرواحهم بأنفسهم، ولكن لا يجب أن يصيبنا الغرور ويجب على الزبانية المسيطرين على القنوات التلفزية أن يضخموا أرقام الوفيات أكثر فأكثر..فيعتقد البشر أن خلاصهم هو في الترياق الذي سنعدهم لهم!!

ويقاطعه آرثر:

_ان هذا النجاح لا يجب أن يغض أبصارنا عن الدول التي فقدنا السيطرة عليها..ولا يجب أن ننسى سلفستر زعيم الزبانية المنشقين..فإن حدسي يخبرني بانه من يقف وراء هذه الانشقاقات..انه لم يظهر إلى العلن ولم نهتد إليه منذ سنوات...

وكان سلفستر في ذلك الوقت يخطط لانقلابات عسكرية أخرى، وكانت الفوضى العالمية التي أثارها الوباء المزعوم قد فسحت له المجال لتمويل ثورات للاطاحة ببعض الأنظمة الخاضعة لسيطرة زبانية الظلام..

وأصبحت الأرض حلبة مصارعة، فاصحاب النفوذ يتقاتلون من أجل البقاء في الحكم والبسطاء يتقاتلون خوفا من الوباء وزبانية الظلام معتكفون في كهوفهم يدبرون كل شيء ولا أحد يعلم ذلك ما عدا الزبانية المنشقون بزعامة سلفستر والذي بدأت رقعة نفوذه تتسع شيئا فشيئا...

وكان آرثر يتأمل مسار الخطة بحذر..ويرى أنه حان الأوان ليتسلم مقاليد حكم الزبانية فويليام أخذ منه السن عتيا ولم يعد ذهنه متوقدا كما كان..فيقرر القضاء عليه قبل أن تخرج الامور على السيطرة...وكان قد جهز خطة للاطاحة بويليام الأب الروحي للزبانية الظلام والذي كان تبناه وجعله ذراعه الأيمن..

وكان ويليام يتخذ حرسا خاصا به، وكان لا يثق بأحد حتى بأقرب المقربين.. لذلك لا بد من خطة مدروسة للاطاحة به دون أن يفتضح أمره...وكان ويليام يذهب لمقر سري كل عام ولا يعلمه أحد وإنه المكان الأنسب لتنفيذ خطته..

كان آرثر غارقا في التفكير، ويقول:

_لا بد لي أن أعرف هذا المكان..

يصمت برهة، ثم يواصل

_لما لا يكون قد اتخذ من منزلنا القديم مقره السري...فلن يخمن أحد بانه عاد إلى هناك..نعم انه هو..نعم انه يعتكف في السرداب المظلم الذي ترعرعنا فيه.. حدسي يخبرني بذلك..

وكان الزعيم ويليام يغيب عن الأنظار لمدة شهر كل سنة ولا يعلم أي من زبانية الظلام الى أين يذهب، وقبل أن يغادر في تلك السنة كان قد سبقه آرثر الى المنزل الجبلي...وكان المنزل قد صار حطاما فهوى سقفه وتآكلت جدرانه، وكانت الغابة قد أتت على معظم أرجاء المزرعة، وكانت هناك بعض الأشجار المثمرة التي نجحت في النجاة من براثن الزمن..وكان آرثر يتجول فيها مستحضرا ذكرياته القاسية، ويقطف بعض ثمار العنب شديدة الاحمرار، ويقول ساخرا:

_وكأن جذورك لا تمتص ماء بل دماء إحدى الجثث!!

ويدخل آرثر السرداب، وكان يحن لأيام الطفولة فرغم قساوتها فقد جعلت

منه قائدا غليظ القلب لا يشق له غبار..وكان الجميع يستشيره في كل شيء حتى ويليام..وكان آرثر قد أعد خطة محكمة لقتل ويليام عن طريق حقنه بالترياق الذي تم اعداده لعلاج المرض المزعوم فهذا الترياق يعقم الرجال ويشوه الأجنة كما أنه يقضي على كبار السن، وكانت الخطة تقضي بتخفيض عدد السكان في العالم فلا يبقى فوقها سوى الزبانية..وكان ويليام متقدما في السن وسوف يقضي عليه الترياق لا محالة وينقلب السحر على الساحر..واختبأ آرثر بين ظلمات السرداب منتظرا قدوم ويليام...وبعد أن أرهقه الانتظار لم يخب ظنه وصدق حدسه فقد قدم ويليام متنكراً في زي إمرأة عجوز، وكان منزله القديم بالفعل هو مخبؤه السري، وما ان فتح باب القبو حتى باغته آرثر بطعنة عن طريق إبرة الحقن وخرج مسرعا ليعود من حيث أتى فهو لا يريد أن يكتشف بقية الزبانية ما أقدم على فعله..وقبل أن يدرك الباب الخارجي للمنزل المتهاوي رأى شخصا ما في المدخل فتسمر في مكانه وقال متفاجئا:

_سلفستر!!!!!! كيف عرفت مكاني!!!

_وهل هناك مكان آخر سيجمعنا غير هذا المكان!!

_إذن لقد كنت تراقب المنزل الذي جمعنا صغارا، وخمنت أنك ستجدني هنا.. فعلا انك شديد الدهاء، أقر بذلك..

_وهو كذلك، فكنت متيقنا أنه لن يجمعنا إلا هذا المكان و لقد حضر ويليام قبلك ولكنه الآن عجوز خرف .. ولا حاجة لي بقتله، بل كنت متأكدا أنك من سيسعى لقتله هنا وليس في أي مكان آخر..وهذا لتنفرد بزعامة زبانية الظلام!!

_صدقت تخميناتك، وأظنك تسعى للزعامة أنت الآخر، وها نحن معا، وبما ان الزعيم ويليام قد أصبح ذكرى من الماضي، فاني أتحداك في قتال رجل لرجل بدون أي أسلحةومن يفوز فله الزعامة!!

_وهو كذلك!!

ويدخل الاثنان في قتال عنيف، فهشم كل منهما أطراف الآخر تهشيما، فكان يضربان بعضهما بقطع اللوح والحديد المتناثر من حطام المنزل، ودام القتال ساعات حتى سقطا الاثنان أرضا..وشعر آرثر بوخزة ما في رقبته وكذلك سلفستر، وفي حركة غير شعورية التفتا إلى الخلف..فذهلا لما شاهدا...لقد كان ويليام واقفا خلفهما يحدق بهما..ويركل آرثر برجله ثم يقول:

_أنا من علمتك الغدر قبل الوفاء، أتظن أنك قاتلي، لقد صنعت لنفسي مضادا للترياق واحتفظت به لنفسي وأعدمت كل من عرف السر..وها اني حقنتكما بمصل سيشل حركتما إلى الأبد، وسيكون السرداب الذي كبرتما فيه القبر الذي ستدفنان فيه..

وتنتاب ويليام نوبة غضب جامحة، ويصيح:"أنا ويليام..أنا ويليام..زعيم زبانية الظلام"

ويسقط أرضا، وكان يتنفس بسرعة واظلمت الدنيا أمامه..

وبدأ يفتح عينيه رويدا رويدا، وكان مستلقيا على سرير غريب، فشاهد شخصا ما مرتديا بدلة بيضاء، وكان يقول له:

_هون عليك يا ويليام ...لقد تخطيت مرحلة الخطر، ونجحنا في استئصال الكلية..

_كلية..عن أي كلية تتحدث!!؟

ويدخل شخصان الغرفة، وكان احدهما يخاطبه:

_ابي يبدو أنك افقت من العملية، لقد سمعناك تصيح ..وتنادي زبانية الظلام

أو ما شابه..يبدو أنه كابوس..

_ومن تكون أنت؟هل أنا والدك؟؟..

_نعم..نعم أنا ابنك آرثر..ولقد انتزعنا للتو كليتك بموافقتك.. أنسيت يا أبي؟؟.. هذا تعهد مكتوب وممضى بخط يدك، سنجني مبلغا هاما يا والدي، فقد وصل الشاري.....

ويبتسم الشخص المرافق له، ويكمل آرثر:

_هذا سلفستر ..أكبر تاجر أعضاء... وقد دفع مبلغا كبيرا مقابل الكلية لأن فصيلة دمك نادرة..